محاولة انتحار

رواية

د. هند المنياوي

محاولة انتحار
المؤلفة : د. هند المنياوي

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 27882 / 2017
الترقيم الدولي : 978-977-769-202-1

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف– الدور
الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

الفصل الأول:

العمل له قواعده.. والنجاح له قواعد مختلفة تمامًا هذا ما تعلمته وهذه هى قواعدى التى وضعتها بنفسى لنفسى حتى أصبح على ما أنا عليه الآن.

دكتورة نسمة إبراهيم.. واحدة من أمهر أطباء الطب النفسى.. لا أهتم بكل ما هو معتاد من تلك المصطلحات الشرقية.. أنا امرأة ذات هدف محدد ولدى طموحاتى فى الحياة وأسعى جاهدة إلى تحقيقها ولن أتنازل عنها مهما كلَّفنى الأمر.

المشاعر الخاصة والحب والكلمات المعتادة لن تفلح معى.. العنوسة التى يعانى منها الجميع لا تعنينى بشىء.. أنا لا أرغب فى ذلك من الأساس حتى أعانى منها أو أفكر لمجرد التفكير بها.. الأمومة، مشروع مؤجل لبعض الوقت.

فى حقيقة الأمر أنا أنثى لدى رغبة شرسة فى الوصول إلى ما لم يتوصل إليه الآخرون فى مجال عملى.. ربما يكون هذا مزعجًا بعض

الشىء لجميع من حولى.. لكنه ممتع بالنسبة لى.

فى عالم الطب النفسى والأمراض النفسية والعصبية، حياة مختلفة تمامًا وأسرار لم يتطرق لها أحدٌ من قبل؛ لذلك أنا أسعى جاهدة كى أصل إلى نهاية هذا العالم الذى لا نهاية له..

أعلم جيدًا ما تقولينه عنى الآن، لكن تأكدى، لم يصبنى الجنون بعد، فأنا أعلم جيدًا الفرق بين الجموح والجنون.

كان ما سبق هو حديث الدكتورة نسمة إلى صديقتها أحلام حينما تقابلا فى أحد الأماكن العامة ودار بينهما الحديث عن المستقبل والزواج والأسرة وما شابه ذلك.

نسمة إبراهيم زين العابدين.. واحدة من أشهر الأطباء النفسيين وأمهرهم رغم أنها لم تتجاوز الواحد والثلاثين عامًا، شخصية قوية، تعيش بمفردها بعد أن توفى والدها منذ ما يقرب من خمسة أعوام، وكانت الأم توفيت قبل وفاة والدها بنحو ما يقرب من عشرة أعوام، فمنذ أن توفيت والدتها وهى تشعر أن نبع الحنان فى تلك الحياة قد جف، وأن كل ما تحمله كلمة مشاعر وجوارح وأحاسيس، هى مجرد مصطلحات واهية، رغم وجودها، وإيمانها، ومعرفتها بمدى أهميتها فى حياة الإنسان، وبالرغم من علمها بأن تلك المسميات ذات أثر بالغ فى تصرفات وسلوكيات الكائن الحى، لكنها لن تتطرق بالنظر نحوهم إلا من خلال الحالات التى تعمل عليها، وتدرسها، وتقوم

بمعالجتها، ومساعدتها فى العودة مرة أخرى للحياة، بعدما تمر بحالة من الانكسار، والتدمير.

ترى الدكتورة نسمة، أن كل هذه المسميات، أو المصطلحات، ما هى إلا دافع وهمى بداخل كل إنسان، يصطنعه العقل الباطن، ليتحالف مع العقل ويقود صاحبه إلى سبيله، ومن الجنون أن تحكم على الأشياء من خلال الإحساس، أو الظن، أو ما تستشعر به فقط، لكن من الحكمة أن تحكم عقلك فى جميع أمور الحياة.

«الصحة النفسية ورجاحة العقل دومًا أساسها الإيمان بالخالق»

هذه إحدى قواعد نسمة المهمة، التى تبنى عليها أساس كل شيء فى عملها، ربما يعود ذلك إلى نشأتها الصوفية.. حيث كان والدها رجلًا من الرجال المخلصين جدًّا فى حب الله، وحب رسوله، وحب آل بيته، ومن خلاله توغلت روحها فى ذلك الحب الروحى، إنه عالم آخر من العشق، الذى يجذب الروح إلى منطقة ربما لم يصل إليها الجميع، فالحب درجات حسب قولها، وحسب ما تعلمت هى من والدها إبراهيم الذى كان يعتاد زيارة أضرحة آل البيت وأولياء الله الصالحين، بل وأنعم الله عليه أيضًا بزيارة الأراضى المقدسة.

نسمة كانت دومًا على خلاف مع والدها فى هذه النقطة، فى حقيقة الأمر كان هذا الخلاف ظاهريًّا فقط، لكن فى باطنها كانت تشتاق روحها إلى التواجد فى تلك الأماكن التى تقطنها أضرحة آل البيت،

هى من عشاق الجلوس فى مسجد السيدة نفسية سليلة الحسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهم أجمعين، وأيضًا من رواد منطقة السيدة زينب بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، نسمة تعلم تمامًا أن فى هذا العالم الروحانى سر العشق، دائمًا ما تنظر إليهم، وإلى سيرتهم العطرة، وإلى كل ما قدموه من تضحيات وفداء من أجل الإسلام، ربما هذا هو أحد أهم أسرارها ودوافعها فى حالة الزهد الدنيوى، فهى لا ترغب فى المال، ولا الشهرة، ولا أن تصبح سيدة تجذب الأضواء نحوها، كل ما ترغب فيه هو النجاح، الوصول للحكمة، ومساعدة الآخرين من خلال عملها الذى تقوم به.

«أنا أقوم بعلاج تلك الجروح التى تصيب الروح، جراء ما تسببه الضغوط اليومية فى حياتنا الدنيا»

هذه واحدة من أقوالها الشهيرة.. هى تعمل على إصلاح ما أفسده العقل البشرى بداخل التكوين الإنسانى، تظن أن هناك حكمة لا يعلمها إلا الله فى ذلك العمل الذى تقوم به، نعم، هى مجرد أداة إلهية تقوم بإعادة كل من شردت نفسه عن الطريق القويم، رغم صغر سنها إلا أنها رأت الكثير والكثير من التجارب التى جعلت منها امرأة صلبة، وطبيبة ماهرة فى مجال عملها.

هناك شيء آخر، وجب أن ننوه إليه، نسمة إبراهيم تعد واحدة من أصغر الأطباء النفسيين الذين تتم الاستعانة بهم فى مجال العمل

الجنائى، إن لم تكن بالفعل أصغرهم.

يذكر أن أول جريمة قتل تم ترشيحها لها من جانب أستاذها فى المستشفى الذى تعمل به، كان بعد التخرج بثلاثة أسابيع فقط..

هى جريمة هزت الرأى العام والصحف والمواقع الإخبارية فى حينها، تفاصيل الجريمة تعود إلى رجل ألقى بزوجته من نافذة الطابق السادس بعد أن قام بفض غشاء بكارتها ليلة عرسها، المدهش، أن كل الدوافع النفسية المعتادة والمتعارف عليها فى تلك الجرائم لم تكن موجودة بالمرة.

«الحالة الأول»

كان محتجزًا بداخل إحدى المستشفيات الخاصة، حينما طُلب منى الحضور، أخبرنى مديرى فى العمل وأستاذى أن الحالة ليست باليسيرة لذلك قرر إرسالى إليه، شاب فى أواخر العقد الثانى، والده رجل أعمال مشهور، والدته سيدة أعمال، تزوج بعد قصة حب تحاكى عنها الجميع، الفتاة أيضًا ابنة رجل أعمال شهير، ربما تكون زيجة مصالح، لكن كيف، إن كل المعلومات المتاحة والمتوافرة تؤكد أن هناك قصة حب أفلاطونية بينهما، إذًا، ما الدافع لذلك؟!

حينما التقيته فى المرة الأولى، كان يرفض أن يرى أنثى بعينيه مرة أخرى، يكره كل ما هو مؤنث، لا يود أن يستنشق عطر أنثى تمر من أمام غرفته، حينما دخلت عليه الغرفة أصيب بحالة من الهياج

العصبى، أتذكر حينها أيضًا أن والده أجرى مكالمة هاتفية برئيسى فى العمل وطالبه بأن يحضر هو شخصيًّا لمتابعة حالة ابنه، فى الحقيقة، أنا شخصيًّا لو كنت مكان والد الشاب لكنت فعلت نفس ما فعل هو، يبدو أن سنى ومظهرى فى ذلك الوقت لا يوحى بأنى أستطيع حتى أن أكتب تقريرًا عن الحالة النفسية التى أمامى، لكن.. سرعان ما تبدل الأمر لدى الجميع، حينما توجهت نحو الحالة مباشرة كى أواجهه وأطلب منه أن ينظر لى، لكنه فى بداية الأمر كان يخفى وجهه عنى وكأنى شيطان رجيم سوف يلقى به فى نار جهنم، الآن تمكن منه، كان من بين الحضور، رئيس النيابة ورئيس المباحث ووالدته، طلبت من والدته الحضور إلى جوارى، ثم طلبت من الحالة أن ينظر إليها، لكنه تهرب أيضًا من النظر إليها، وحينها وجدت أول الخيط الذى سوف أقوم بجذبه حتى يفك طلاسم هذه الحالة..

أمسكت بوجهه وطالبته بالنظر إلى وجه أمه التى أنجبته، ربما كان وجودها فى ذلك الوقت شيئًا ممتعًا ، ومكسبًا حقيقيًّا، أول سبُل العلاج هى مواجهة المشكلة من الأساس، لماذا يخفى وجهه عن أمه التى أنجبته؟!

ربما لم أكن شديدة القسوة فى المعاملة مع المرضى، كمثل هذه المرة، حينما أمسكت بوجهه رغمًا عنه، وطالبته بالنظر إلى أمه التى أنجبته، أخذت أذكره، كم عانت من أجله منذ أن كان مجرد جنين

فى بطنها، وكم المعاناة التى عاشتها وهى تخرجه إلى تلك الحياة، كم مرة أرضعته، كم مرة قامت لتبدل له ملابسه، كم مرة قامت بغسل جسده الهزيل، كم مرة أطعمته، كم مرة سهرت على راحته أثناء مرضه، كم عانت من أجله، هل هذا ما تستحقه الآن، انظر لها جيدًا، إنها أمك، أنت فلذة كبدها، أنت شهيقها وزفيرها، أنت سر وجودها فى تلك الحياة، وهى أيضًا سر وجودك، إن كل ما تحمله بين ضلوعك من حب وعشق وحنين هى مصدره، نقلته لك من ثدييها حينما أرضعتك، والآن لا ترغب أن تنظر لها بعد كل ما قدمته لك، توقف عن حماقاتك وأفكارك الهزلية، واطرد تلك الأفكار التافهة من رأسك، أنت بحاجة إلى المساعدة، ولن يستطيع أحد من كل من حولك مساعدتك، نعم، لن يساعدك أحد غيرك، لذا، يجب أن تواجه الأمر بشجاعة، الأمس لن يعود إلى اليوم بكل ما فيه، عليك أن تبدأ الآن، ولا تتوقف عند ما حدث بالأمس، فى تلك اللحظة نطق قائلًا: لكنى قتلتها، قتلت من حلمت أن تكون لى زوجة، حبيبة، سندًا وظهرًا، قتلت من حاربت العالم أجمع من أجلها، قتلتها، شيء جيد أن ينطق، حتى وإن كان حديثه لا يقدم أى جديد، لكنها نقطة جديدة للانطلاق.

ولماذا فعلت ذلك ما دمت تحبها؟!

كانت تستحق الموت!

كيف؟!
عليكِ أن تسأليها هى كيف؟
أنت أصدرت فى حقها حكم الإعدام.
تستحقه عن جدارة.
وما الدافع؟! عليك أن تبرر فعلتك حتى لا تعدم أنت الآخر.
لا يهم.. أريد أن أدخن.
هذا يعنى أنك تريد أن يفك الحارس قيد يديك؟
ليس لدى نية الهرب.. من أنتِ؟!
طبيبة.
وما هو دورك فى التحقيق؟
الكشف على سلامة عقلك.
إنه فى أفضل حال الآن، عليكِ أن تذهبى وتتركينى.
هل كان الشك هو الدافع فى ارتكاب الجريمة؟
النخوة والكرامة.
هل أهانت رجولتك لدرجة تستدعى أن تلقى بها من النافذة؟
لا يستطيع أحد أن يهرب من مصير محتوم.
ألم تكن بكرًا؟!
كيف وأنا من أزهق عذريتها؟!
هل تشعر بالاشتياق لها الآن؟!

كيف وأنا من أزهق روحها؟!

ترى ما هو السر الذى دفعك لفعل ذلك ولا تود أن تخبرنا عنه شيئًا؟

لدى سؤال، هل يجوز لى أن ألقه عليكِ؟

بالطبع نعم.

ما هو الدافع الذى يجعلكِ تهتمين لأمرى، وهل يجوز أن تفشى سر من استأمنكِ سره.

كان السؤال الذى طرحه يحمل معانٍ كثيرة، لم أجد سوى ابتسامة بسيطة ترفقها نظرة عين حادة وقوية وجهتها إليه وأنا أقف عند هذا الكرسى الذى كنت أجلس عليه وأنا أتحاور معه.. ربما تكون المرحلة الأولى من العلاج قد انتهت.. نظرت لى أمه فى هذه اللحظة وكانت تطرح بعينيها سؤالًا مهمًا للغاية: هل هناك أمل فى إعادته مرة أخرى للحياة الطبيعية، كان من الطبيعى أن أتركه بعض الوقت لكى يبدأ فى إعادة تأهيل نفسه للجولة القادمة.. أخبرت والدته أن تبقى معه وتحدثه.. الآن هو يستطيع أن يفعل ذلك دون خوف.. يستطيع أن ينظر إلى عينى أمه التى أنجبته بلا أى شك فى سلوكها، وأفكارها!! حينما نطقت بتلك الكلمات أمامه أثناء توجهى نحو باب الغرفة، نظرت إليه، فوجدته ينظر لى بشراسة، ومن حُسن حظى أنه كان مقيدًا فى سريره، كل ذلك أيضًا والده ووكيل النيابة الذى كان معنا

وضابط الشرطة المسئول عن تأمينه بداخل المشفى، سألنى وكيل النيابة عن حالته فأخبرته أنه ربما يكون قد تعرض لصدمة عصبية شديدة هى التى دفعته لارتكاب الجريمة، لكن مازلنا فى مرحلة فك طلاسم حالته النفسية، يبدو أنه شخص قوى وغامض، انتهت أول جلسة لى مع هذا المريض ولم يتبقَ لى سوى جلستين ويجب أن أكتب تقريرى عن حالته، حاول والده الوصول لى، هاتفنى وطلب منى مقابلتى لكى يطمئن على حالة ابنه بشكل شخصى خارج إطار العمل، لكنى كنت أعمل فيما يفكر، قطعت الطريق منذ البداية وأخبرته أننى أقوم بعملى على أكمل وجه، وأننى أتعامل مع ابنه كحالة مرضية ليس أكثر، هنا قالها لى صريحة، يجب أن يبرأ تقرير ابنى من التهمة الموجهة إليه، ردى كان سريعًا للغاية، أنهيت المكالمة دون استئذان..

فى صباح اليوم التالى، كان موعد الجلسة الثانية مع المريض، كان كل شيء مرتبًا ومعدًا قبل وصولى للمكان، هاتفنى مديرى فى العمل أثناء توجهى، بالطبع كنت أعلم سبب المكالمة ومحورها، وهو أيضًا لم يستغرق من وقتى أكثر من خمس وأربعين ثانية فقط، كانت المكالمة عبارة عن ملخص للمكالمة التى حدثت بينى وبين والد الجانى مساء أمس، كان رد مديرى فى العمل على هذه الواقعة التى كان يعلمها مسبقًا هى جملة واحدة فقط، افعلى ما يمليه عليكِ ضميرك.

وبمجرد دخولى للغرفة، طلبت من الضابط المكُلف بحراسة المريض، أن يخلى لى الغرفة ويبقى هو فقط معى أثناء الجلسة، لم أكن أقصد أى شيء من ذلك إلا تأديب ذلك الرجل عن فعلته التى فعلها معى بالأمس، ليس أكثر، فى الحقيقة أنا أقوم بعملى فى أى مكان، وتحت أى ظروف، وبكل الأساليب المتاحة، هكذا تعلمت، وهذه مبادئى وقواعدى فى العمل، لكن لا مانع أن أقوم بمعاقبة شخص ما أساء لى، وشكك فى ذمتى وقناعتى، ليس ذلك فحسب، بل إنه شكك فى تربية والدى لى، فى حقيقة الأمر، هذه المنطقة لدى، هى المنطقة التى تسمى باللغة العسكرية حقل ألغام.

مرت الجلسة الثانية بينى وبين المريض بهدوء، كان هناك هدف واحد فقط من تلك الجلسة، كنت قد أخبرت الضابط به مسبقًا ، الهدف هو كسب الثقة، لا يهم ما هى التفاصيل التى حدثت أثناء وقوع الجريمة، بل كل ما يهم بالنسبة لى، الدوافع، نعم، إن استطعت أن أصل للدافع الحقيقى لارتكابه تلك الجريمة، حينها أستطيع أن أحدد مدى تأثير ذلك الدافع على حالة الوعى وحالة اللاوعى لدى المريض أثناء ارتكابه الجريمة.

من السهل أن تمسك قلمك وتكتب تقريرًا.. من السهل أن تعرف الشخص الذى يجلس أمامك يعانى من مرض نفسى أم لا.. لكن من الصعب أن تتحكم فى مصير إنسان خصوصًا لو كان هذا

الإنسان شابًا يافعًا فى مقتبل الحياة.. فى عالم الطب النفسى يكون الجانى مجنيًّا عليه أيضًا.. تلك حقيقة لا نستطيع إنكارها.

بعد الجلسة الثالثة بينى وبين هذا المريض أيقنت أن ما أقدم عليه من جرم ما كان ليقدم عليه لولا تلك الدوافع التى مر بها.. لم أكن أتخيل كم الضغوط التى تعرض لها فى تلك اللحظات التى ارتكب فيها جريمته.. كان يروى لى التفاصيل وكأنه يشاهد فيلمًا لم يستطع أعتى كتَّاب السيناريو صياغته.. للظلم درجات.. أقصاها هو ظلم النفس.. نعم.. لقد ظلم نفسه حينما استشعر أن تلك الفتاة تحبه لذاته لا لماله وحسبه ونسبه..

لم أكن أتخيل أننى سوف أقابل يومًا جريمة كهذه.. هل من المعقول أن تصارح زوجة زوجها بأنها شاذة من طفولتها وتحب معاشرة الفتيات بدرجة لا تستطيع أن تمنع نفسها عن ذلك.. وحينما سألها لماذا تزوجته إذًا تخبره لأنها ترى فيه نفسها حينما تكون لديها الرغبة فى فتاة تريد معاشرتها.. كانت الصاعقة حينما طلبت منه أن يسمح لها بأن تجلب هؤلاء الفتيات إلى منزلها الجديد وتمارس معهن شذوذها بشكل طبيعى.. فى تلك اللحظات غاب عقله وارتكب جريمته.

ظلت هذه الواقعة عالقة فى ذهنى إلى فترة ليست بالقصيرة.. قابلت حالات كثيرة لم أشاهد مثل تلك الواقعة قط.. إلى أن جاء

اليوم الذى قلب كل الموازين لدى.. كل شيء انقلب رأسًا على عقب.

من السهل أن تتذكَّر أشياء حدثت فى الماضى ما دامت ذات قيمة.. والحكمة الإلهية دومًا ما تعلَّمنا ما لم نكن نعلم.. إن المرور بتلك الحالات والواقع يجعلنا كهذا الجبل الراسى لا يهتز مهما كانت قوة الرياح وشدتها.

لكن هناك واقعة تجعلك تغير جميع الأساليب فى التعامل مع الأشياء التى تدور حولك..

أنت مجرد ذرة فى تركيبة الكون لا يعلم قيمتها ولا أهميتها إلا خالقك.

هكذا علَّمنى أبى حينما أخبرنى عن سبيل البحث فى الحكمة.

وعلينا أن نتدبَّر.

الفصل الثانى:

لن تبلغ لنهاية الحكمة إلا حين ترحل.

خلقنا من عدم وإلى العدم نعود.. فعليك أن تفعل ما خلقت لأجله وإلا لن تتحقق الحكمة الإلهية من خلقك.

كان والدى دومًا يحكى معى بهذا الأسلوب الذى يبدو كالطلاسم الروحانية.. رغم سهولة المصطلحات لكنها تحمل عمقًا يجعلنى دومًا أبحث عن التفاصيل والمقصد من تلك الكلمات.. وكان دائمًا ما يصيب عقلى بالإجهاد من شدة التفكير والغوص فى معانٍ أبعد من الكلمات.

من المتعارف عليه أن المولى عزَّ وجلّ خلقنا لكى نقوم بعبادته وأن نعمر الأرض كما أمرنا الله.. وننشر المحبة والسلام.. لكن هل سأل أحدكم لمَ نتعلم وندرس فى تخصصات مختلفة؟!.. حينما شرد تفكيرى فى هذا الأمر بدأت رحلة جديدة فى الحياة.. منطقية التفكير اختلفت تمامًا.. أنا صاحبة رسالة.. بمعنى أدق.. أنا ذات مسئولية

ومكلفة بخدمة الآخرين ويجب أن أقوم برسالتى وأؤدى مهمتى على أكمل وجه.. كلمة الحق أمانة.. نخوض من أجلها حروبًا ضد أهل الباطل.

لم أكن أتوقع أننى سوف أقاتل فى هذه الحياة بتلك الشراسة التى أنا عليها.. نعم.. جميعنا مقاتلون فى صفوف الحق.. كل منا حسب تخصصه ووظيفته.. كل منا حسب عقله وعلمه ومعرفته ودوائر علاقاته.

الآن فقط تمعنت فى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته»..

إليكم أخطر ما يمكن أن يقابله المرء فى الحياة.. الوجع الحقيقى الذى يمتلك الروح قبل الجسد.. إنها قضية عمرى التى أنا على أتم الاستعداد أن أستشهد من أجلها.

سميرة سعد الدين.. طفلة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها.. تعانى من حالة نفسية سيئة.. عدم ثقة فى أى شيء.. حاولت الانتحار مرتين فيما سبق.. بعد إجراء الكشف الطبى عليها والاطلاع على التقرير الطبى الخاص بها تبين لنا التالى: جرح فى فتحة الشرج نافذ وتهتك فى غشاء البكارة.. نتج عن تعرض الطفلة لحالة من الاغتصاب بصورة وحشية مما يدل على فقدان وعى المعتدى عليها أثناء ارتكاب الواقعة.

الطفلة فى حالة انهيار تام نتيجة لما تعرضت له.. وهى الآن فى المستشفى العام..

أما الجانى فهو رجل ثرى خليجى يدعى «عارف» تم إلقاء القبض عليه وحينما وجهت إليه النيابة التهم المنسوبة إليه.. اعترف بارتكابها مبررًا ذلك بأنه يعانى من مرض نفسى يجعله يقُدم على جريمته دون وعى أو إدراك.. وهو الآن مودع فى إحدى مستشفيات الأمراض النفسية والعصبية.. تحت الحراسة المشددة بأمر من جهات التحقيق.

ما سبق كان ملخص مكالمة هاتفية دارت بينى وبين المسئول فى الجهة التى تتولى التحقيق ويطلب انتدابى للعمل معهم فى الكشف على ذلك الرجل «عارف» والتأكد من قواه العقلية.. أنهيت المكالمة بعد أن قطعت وعدًا إلى محدثى بتواجدى فى الصباح لكى أباشر مهام عملى مثلما طُلب منى.

فى حقيقة الأمر شيء مخزٍ للغاية أن تتعرض طفلة لم تكمل بلوغها بعد.. إلى ما تعرضت إليه سميرة هذه.. لقد انتهى كل شيء بالنسبة لها قبل أن يبدأ.. كيف لها أن تعيش فترة مراهقتها.. كيف لها أن تصبح فتاة كباقى الفتيات بعدما حدث لها.. هل ستتزوج.. كيف؟!.. هل ستصبح أمًّا؟! كيف؟! كل الأمور المستقبلية الطبيعية التى يمكن لأى فتاة أن تحلم بها يبدو أنها تبخرت تمامًا وأصبحت

كالعدم فى حياة سميرة هذه.. هل حقًّا فكرت الطفلة فى كل ما سبق مثلى لذلك حاولت الانتحار.

الأصعب من ذلك.. هو مشهد الاغتصاب نفسه.. من هو المغتصب.. ما هى مقوماته الجسدية.. ما هى قياساته النفسية التى دفعته لارتكاب جريمة مثل هذه فى طفلة مثل سميرة التى لم تكُمل بلوغها بعد.

الأمر برمته أثار بداخلى حالة من الغضب عارمة.. استشعرت وأنا أشاهد كل هذه التفاصيل أثناء طرحى لكل هذه التساؤلات أن تلك الطفلة لها حق عندى.. وكأن ذلك المسئول الذى انتدبنى للعمل فى هذه القضية يقول لى من فضلك قومى بدورك تجاه هذه الطفلة.. وفى حقيقة الأمر لم أتردد بالنزول إلى أرض المعركة.. لن أترك حق هذه الطفلة.. تواصلت مع صديق لى يعمل فى مجال الصحافة قسم التحقيقات والذى كان قد أرسل لى رسالة عبر البريد الإلكترونى يحكى فيها تفاصيل القضية هو الآخر.. ولكننى أود الاستعانة بعدد من الجنود والمقاتلين معى فى هذه الحرب ولذلك قررت الاستعانة به. . وعلى الفور دار بيننا اتصال هاتفى.

ــ مساء الخير يا جاسر.

ــ أهلا يا دكتورة مساء النور.. أخبار حضرتك إيه؟.

ــ بخير الحمد لله.. قوللى إيه تفاصيل الرسالة اللى أنت بعتهالى

دى؟

ــ والله يا دكتورة أنا معنديش أى تفاصيل أكثر من اللي بعتها لحضرتك على النت.. أنا قابلت الحالة دى النهاردة فى المستشفى وفى الحقيقة البنت صعبت عليا جدًّا وعلشان كدة تواصلت معاكى لو تقدرى تساعديها؟

ــ طبعًا.. بكرة الصبح هاكلمك وأقولك هنعمل إيه.

لم أكن أعرف ما هو الدافع وراء كل ذلك.. لكنها تبدو كعادة تعودت عليها من أبى ـ رحمة الله عليه ـ عملنى أنى لا أتردد فى مساعدة الآخرين ما دمت أستطيع ذلك.

فى الصباح وبعد أن تناولت وجبة إفطارى وقهوتى وتوجَّهت إلى تلك الجهة القضائية والتقيت مع مسئول التحقيق فى تلك القضية.. وبدوره نقلنى إلى ذلك المستشفى الذى يقبع به «عارف» ذلك الوغد الذى اغتصب سميرة.. تلك الفتاة البريئة التى فى أوائل ربيع عمرها.

وصلنا إلى غرفة الجانى.. رجل فى أواخر العقد الرابع.. يبدو على هيئته الثراء.. ملامح وجهه جامدة.. لا يبالى بما هو فيه.. لا يخشى تلك التهم الموجهة إليه.. وكأنه على يقين أنها مجرد إجراءات قانونية سوف تمر وينتهى الأمر ويتم ترحليه من البلاد.. ربما يكون هذا أقصى عقاب فى مخيلته سوف يعاقب به.. لكننا لم نبدأ بعد.

أخذت الكرسى وجلست أمامه.. بدأ ينظر لى بشهوانية.. ربما

أثرته.. أعرف ذلك الشعور جيدًا لدى هؤلاء الذئاب المتوحشة.. أظن أنه مدخل جيد حتى أحصل منه على ما أرغب.. هيا بنا نبدأ:

صباح الخير.

يا هلا والله.

أخبارك إيه.

بعافية الله يديمها.

إنت عارف إنت هنا ليه.

آه.. علشان جرحت مراتى وأنا أعاشرها.

أولًا هى مش مراتك.. لأنها طفلة وقاصر.. ثانيًا.. أنت اغتصبتها وكنت هتموتها.. ثالثًا. . أنت معاك ما يثبت إنها مراتك.

قصدى خطيبتى.. أنا دفعت مهرها لأمها.

يعنى إنت بتعترف إنك اغتصبتها.

لا.. عاشرتها.

من الخلف.

وإيه المانع.. أنا راجل صاحب مزاج وكل شيء له ثمن.

فى الحقيقة لم أستطع أن أتحمَّل وقاحة هذا الرجل.. وجراءته فى الحديث معى.. طلبت من مسئول التحقيق أن نكتفى بهذا القدر كجلسة تعارف بينى وبين المتهم.

يبدو أنى على مشارف حرب ضروس.. سرعة ردود الجانى تؤكد

سلامة عقله.. أما ردوده ذاتها تظهر عدم ذلك.

لم أغفل أمر صديقى جاسر.. هاتفته بمجرد خروجى من عند عارف مباشرةً.. أريد أن أقابل هذه الطفلة المجنى عليها.. وبالفعل التقينا وتوجَّهنا إلى المستشفى الذى يخضع فيه للعلاج.

فى حقيقة الأمر اعتدت على مشاهد هذه المستشفيات الحكومية.. حيث الزحام وعدم النظام.. حيث قلة الإمكانات.. وعدم الاهتمام بحالة المرضى.. وعدم احترام من المرضى للأطباء.. للأسف.. إنها حقيقة معقدة للغاية.. هناك حالة من النسبية العكسية غريبة جدًا فى هذه المستشفيات.

وبرغم كل هذا.. لا يستطيع الطبيب أن يتخلَّى عن المريض.. ولا يستطيع أن يتخلَّى المريض عن الطبيب.

أثناء سيرى فى الطرقة الطويلة المؤدية إلى العنبر المتواجدة به سميرة.. رأيت عالمًا آخر غير الذى نعيش فيه.

وكأن أهل هذا البلد جميعًا يعانون من الأمراض.. لدرجة أننى كنت سوف أخرج من المستشفى كى أتأكد أن البلد خاوٍ من البشر والجميع داخل المستشفى.

فى الحقيقة.. أنا أعشق هؤلاء المساكين الجالسين على الأرض أكثر من شخصى أنا.. إنهم الرمز الحقيقى للبساطة.. صورة جميلة يصعب وصفها من كثرة التدخلات الغريبة التى تحويها.. فقر مال

وغنى نفسى.. وهن ومرض مع عزة وكرامة.. رجاء مع شموخ.

تدخلات عجيبة بين أناس يتناولون الطعام وهم يفترشون الأرض وبينهم مرضى ربما يغادرون الحياة بسبب أكلة غير مناسبة لحالة المريض الصحية.

أطفال صغار مسترخون على أقدام أمهاتهم.. لكنهم يضعون قدمًا على قدم.. وكأنهم ولدوا لأب باشا وأم ملكة.. ولديهم قصر يعمل فيه الخدم.

عالم آخر كما سبق وقلت.. هناك باعة جائلون على البوابة الرئيسية.. لكن لديهم نفوذ يجعلهم يدخلون لك حتى غرفتك.. بل حتى سرير فى عنبر داخل المستشفى.

لديهم قوة التعامل مع أى شيء وكل شيء.. لكن حينما يأمر اللهو الخفى.. باختفاء هؤلاء الباعة.. يتبخرون.. وكأنهم لم يكونوا موجودين من الأساس.. وهذا يجعلك تطرح التساؤلات الأهم؟!

من هو اللهو الخفى بداخل كل المستشفيات الحكومية؟!

ماذا لو تم فرض النظام على الجميع؟!

لماذا لا يحترم المريض الطبيب فى المستشفيات الحكومية إلا حينما يشتدُّ عليه الألم؟!

لماذا لا يهتز الطبيب لصرخات المريض إلا حينما يصل إلى أعلى درجات الوجع من شدة الألم؟!

من واقع خبرتى فى المستشفيات الحكومية.. يجب أن نطلب من التمريض والأمن أن يقوموا بإدارة المستشفى.

هذان القسمان فى المستشفيات الحكومية يمثلان قوة رهيبة.. التمريض يستطيع أن يجعل من المريض شيئًا مهمًا وأيضًا يستطيع أن يجعل منه شيئًا ليس مهمًا . . فهو حلقة الوصل بين المريض والطبيب.

أما رجل الأمن وما أدراك ما رجل الأمن فى المستشفيات الحكومية.. هو بمثابة ضابط برتبة عقيد أو عميد فى وزارة الداخلية.. نعم.. يستطيع أن يجوب ويجول بك فى كل سراديب المستشفى.. فى كل الأوقات.. لكن طبعًا كل شيء له ما يقابله.. كما يستطيع أيضًا أن يفرض النظام والاحترام.. وأن يوفر جميع سُبل الراحة للمريض.. إن كان يريد هو ذلك.

ربما أخذنى فكرى وعقلى وشرودى فى أشياء ليس لها أى علاقة بما نحن فيه.. لكن.. إنها التفاصيل.. التى يصعب على إنسانة مثلى ألا تراها ولا تذكرها.. ولا تبحث لها عن حلول.

الإنسان.. هو المريض.. وهو نفسه الطبيب.. وهو ذات الممرض.. وهو أيضًا رجل الأمن.. هو سائق سيارة الإسعاف التى تنقل المصاب إلى المستشفى.

.. فى جميع الأحوال.. الإنسان شيء واحد فقط.. مهما اختلفت صفاته والمسميات الوظيفية التى يقوم بها.

لا يوجد إنسان لا يمرض حتى الطبيب.. إذًا علينا أن نكون عونًا لبعضنا البعض بشكل حقيقى دون تمييز.

رجعت من هذا العالم الذى سبحت فيه، حينما وقفت أمام باب العنبر الموجودة به الطفلة سميرة.

لم يكن صديقى قد وصل إليها بالأمس، ولم يشاهدها من قبل، كانت هذه المعلومة بالنسبة لي مفأجاة.

ــ طيب وأنت جبت المعلومات اللى قولتلى عنها إمبارح دى منين.

ــ أنا مظبط كام ممرض هنا على ممرضة على كام واحد من بتوع الأمن يا دكتورة.. زى ما حضرتك عارفة.. الصحفى لازم يكون له مصادر.

ــ مصادر؟!

لم أجد شيئًا أقوم به فى تلك اللحظات إلا هذه الضحكة، ضحكة ساخرة على ما وصلنا إليه، لكن وللأسف، هذه هى الطريقة السريعة فى جلب الخبر، وفى الفوز بالسبق الصحفى.

انتظرنا للحظات حتى جاءت «هالة » التى عرفت أنها أحد مصادر صديقى.. ملامحها تدل على أنها مصدر صحفى لجميع وكالات الأنباء فى العالم، وليس هنا وحسب.

ــ هذه مجرد دعابة، أرجو أن تتقبليها منىَّ.

كان يجب أن أقول لـ«هالة» تلك الجملة، بعد أن تحوَّلت ملامحها

حينما قلت إنها مصدر صحفى لجميع وكالات الأنباء العالمية، لكن هى فى الحقيقة تبدو كذلك، وتعمل بشكل جيد، أقصد، تكسب جيدًا من عمل مصدر صحفى هذا.

أخذتنا إلى حيث سميرة، التى حدثت صديقى الصحفى عنها بالأمس، وقدمنا إلى سميرة، صديقى الصحفى، هو أخوها الذى يعمل فى الجريدة التى أخبرتها عنها بالأمس،

أما أنا، حينما أشرت لها بيدى كى تقدمنى إلى سميرة دون أن تعرف اسمى من الأساس. لكن صديقى الصحفى بادر مسرعًا.

ــ دكتورة نسمة إبراهيم.. أكبر دكتورة فى البلد بحالها، جت مخصوص علشان تتابع حالتك، وتساعدك.

كان من المدهش أن تخفى سميرة وجهها عن وجه صديقى الصحفى، سميرة لا تريد أن تنظر ولا حتى تسمع أى صوت لأى رجل.

وضح ذلك بشدة، حينما سألها صديقى الصحفى، لماذا تخفين وجهك عنى، وتصمين أذنيك، إننا أتينا إلى هنا كى نساعدك؟!

فى تلك اللحظة، بدأت سميرة فى الانهيار.. وأخذت تصرخ بشدة.. مما دفع هالة لطلب الرحيل فورًا من المكان، لكن بالطبع رفضت ذلك، أخبرتنى هالة وهى فى حالة قلق وكأنها مرتكبة جريمة قتل وتريد الهروب قبل أن تحضر الشرطة وتلقى القبض عليها.

ـ يا دكتورة من فضلك أخرجى دلوقت.

ـ روحى نادى للدكتورة المسئولة عن حالتها.

ـ نعم ؟!

ـ أقولك تانى.. اتفضلى قولى للدكتورة المسئولة عن حالتها، إنى عايزة أقابلها.

فى تلك اللحظات دخلت علينا إحدى الطبيبات الجديدات.. ربما تكون السنة الأولى لها فى الوظيفة، ما إن رأتنى إلا وقدمت نحوى وهى تتحقق منى متسائلة؟.

ـ دكتورة نسمة إبراهيم.. حضرتك الدكتورة نسمة إبراهيم صح.

ـ أيوة أنا.

ـ أهلًا وسهلًا بحضرتك يا دكتورة.. نورتِ المستشفى بحاله.

ـ هاتفضلى ترحبى بيا وهاتسيبى سميرة بتصرخ؟! قولى لـ«هالة» تدى البنت مهدئ الأول يا دكتورة.. حياة المريض أهم من أى حاجة تانية.

ـ آسفة يا دكتورة.. حالًا.

ثم أشارت إلى هالة، والتى قامت بدورها وأحضرت الأدوية اللازمة والمهدئة التى تحتاج لها سميرة.

لم تقف الطبيبة المعالجة معى بعد أن قامت بدورها فى وضع المهدئ

للطفلة التى أتيت خصيصًا لها.. بل قامت بالمرور على بقية المرضى، وكأنها تظن أننى أتيت عليها كرقيب، ربما فارق السن والخبرات التى بيننا، جعلها تفكر بهذا الأسلوب، أما أنا فجلبت كرسيًّا، وجلست بجوار سرير سميرة، فى انتظار أن تفيق، أو تنتهى الطبيبة النبطشية من المرور، وأستعلم منها عن حالة الطفلة بالتفصيل.

بالفعل انتهت الطبيبة، ثم أتت لى مسرعة، طالبتنى أن أتوجَّه معها نحو غرفة الأطباء بدلًا من الجلوس هكذا، لكننى فضَّلت أن أجلس هنا، بجوار حالتى وقضيتى الجديدة، حصلت على كل التقارير الطبية، والتحاليل التى قامت الطفلة بإجرائها، تعرفت على الحالة جيدًا، لكن هذه المرة، بشكل أقرب.

هناك حقائق يجب أن تقرأها بين السطور، دون أنت تكون مكتوبة.

الآن.. أنا أبحث عن معلومة أخرى، أريد أن أحصل عليها فى أسرع وقت، حتى أتمكن من معالجة حالة الانهيار التى أصابت الطفلة.

من الصعب على إنسان أن يحصل على مهدئ كى ينام ثم يستيقظ ويحصل على مهدئ من جديد كى ينام من جديد.

من الصعب أن يعيش على المحاليل الطبية فقط.

من الصعب أن يكون مازال لديك القدرة على التنفس، وتريد أن

تموت دون حق لك فى الموت.

تساؤلات كثيرة، ترى من أين تكون البداية؟!

ما هو الخيط الذى على أساسه سوف أصل للحقيقة؟!

من لدية القدرة على المساعدة؟!

يبدو أنى سوف أستخدم أسلوب صديقى الصحفى؟!

هالة.. هى الآن بالنسبة لى مصدر المعلومة.. لقد جلبت معلومات عن حالة سميرة إلى صديقى الصحفى، جعلته يسرع ويتحدث لى على الفور، دون أن يقابل الحالة.

هالة تستطيع أن توفر لنا ما نريده، على الأقل الآن؟!

لم أتردد.. ناديتها وسألتها بشكل مباشر، هل هذه الطفلة أتت إلى المستشفى بمفردها؟!

أجابتنى: بالطبع لا، بل تأتى لها أمها، لكنها لا تأتى إلا فى مواعيد الزيارة الرسمية، نظرًا لظروف حالة ابنتها.

يبدو أن هالة تعلم ما لا أعلم جيدًا، وذلك يدفعنى للانتقال للمرة التالية من الأسئلة، هل من أحد غير الأم يقوم بزيارة الطفلة؟!

أجابت هالة، الطفلة هنا منذ يومين، وهذا صباح اليوم الثالث لها، لم يأتِ إلى هنا إلا الأم والخالة، هما فقط من تتابعان الحالة، وعلى كلٍ لم تبقَ إلا ساعات قليلة على موعد الزيارة، وحينها سوف تلتقى بالأم، والخالة أيضًا، وربما نشاهد أحدًا جديدًا من هذه العائلة.

هززت رأسى.. وشكرت هالة على كل ما قدمته لى من معلومات، ثم اطمأننت على حالة سميرة بعد أن قمت بقياس النبض لها، ثم طلبت من صديقى الصحفى أن يصحبنى إلى كافيتريا المستشفى، أود أن أتناول القهوة بصورة غير منطقية.

هناك متسع من الوقت، حتى يحين موعد الزيارة، أخرجت مذكرتى، التى أقوم بتدوين جميع الأشياء المهمة بها.

بدأت أدون تلك المعلومات التى حصلت عليها، وبدأت أضع التساؤلات التى تحتاج إلى أجوبة؟

لماذا الأم والخالة فقط هما من يقومان بزيارتها؟!

لماذا لم يحضر الأب؟! أو على الأقل زوج الخالة أين وجد؟!

لم تذكر هالة أى شيء آخر، غير هذين الاسمين!! إذًا سميرة هى الابنة الوحيدة لأمها!! أو ربما هناك احتمالات أخرى، ربما!!

آه.. هناك ملاحظة أخرى، سميرة لم تصرخ حينما رأت وجه الطفل الصغير الذى كان بداخل العنبر، لكن حينما رأت وجه صديقى الصحفى، هاجت وأخذت تصرخ لدرجة جعلت الطبيبة النوبتجية، تأتى إلى العنبر مسرعة.

يجب أن نضع ذلك فى عين الاعتبار أيضًا.. ربما يكون لذلك دلالة فيما هو آت.. سوف نعرف بلا شك، لكن لا يجب أن نتعجل الأمور، ونفكر بعقل، ومنطقية.

نحن الآن فى انتظار موعد الزيارة الرسمية، حينما يأتى هذا الموعد، سوف نكتشف الكثير من التفاصيل، لابد أن الأم تحوى بداخلها الكثير، ويجب أن أتعامل معها برفق وحذر، حتى أصل إلى مرادى.

الأمور الصعبة مهما كانت صعوبتها، تكون لينة، وسهلة، بمرور الوقت، الثوانى التى تمر فى حياتنا لها قيمة، ولها هدف، وهناك حكمة من مرورها بهذا الشكل.

يجب أن أتوقف الآن عن التفكير فى هذه القضية، يجب أن أصفى ذهنى، حتى أستطيع أن أحصل على ما أريد حينما ألتقى الأم.

لكن، لحظة، ماذا لو كانت لا تود المساعدة من الأساس؟!

كل الأساليب، والإمكانات المتاحة، والمتوافرة، يجب أن تُستخدم.

الفصل الثالث:

لا تشغل رأسك بالانتظار، حتى لا تستشعر الملل.

اقضِ أوقات الانتظار فى شيء مفيد، أبسط وأسهل السبُل للقضاء على الوقت، هو الشرود فى جمال الإبداع الإلهى، نعم، ابحث حولك عن شيء من صنع الله، ثم تأمل بداية هذه الشيء، وكيف ينمو، إلى أن يصبح بالصورة التى هى عليها الآن، ثم انظر إلى نهايته، وتأمَّل حكمة المولى ـ عز وجل ـ فى البداية، والحياة، والنهاية.

هكذا كنت أقضى على الشعور بالملل دومًا، حينما تدفعنى الظروف إلى الانتظار، ربما لم أتعلم ذلك من خلال الكُتب، لكن أبى ـ رحمة الله عليه ـ علَّمنى الكثير والكثير فى هذه الحياة، ثم وجدت ما علمنى إياه فى هذه الكُتب التى تُدرس اليوم، والتى تصبح مؤلفات فى المكتبات العامة لكبار المؤلفين والمفكرين.

أصل كل شيء يعود إلى خالقه.

هذا كان محور حديثى مع صديقى الصحفى، أثناء جلوسنا فى

كافيتريا المستشفى، ونحن بانتظار أم الطفلة سميرة، التى سيكون لديها الكثير من الإجابات التى أبحث عنها، هذا إن وافقت على مساعدتى لها ولطفلتها من الأساس.

حان الآن موعد الزيارة، علينا أن نتحرك الآن، هكذا أخبرنى صديقى الصحفى، بعدما ألقى نظرة فى ساعة يده، كُنت قد انتهيت من تناول قهوتى، وبالفعل، قمنا، وتوجَّهنا مباشرةً نحو العنبر الموجودة به سميرة، أثناء سيرنا فى الطرقة المؤدية إلى العنبر، دار بينى وبين صديقى الصحفى هذا الحوار.

ــ ممكن أسألك سؤالًا؟

ــ طبعًا، اتفضلى يا دكتورة.

ــ هو إنت ليه مهتم بموضوع البنت دى؟!

ــ شوفى يا دكتورة، أنا عارف إن حضرتك لسه متجوزتيش.

ــ وإيه علاقة الكلام ده بالسؤال بتاعى؟!

ــ ما أنا جاى لحضرتك فى الكلام، لو حضرتك كنتِ متجوزة بقالك 6 سنين وربنا ما رزقكيش بطفل يملى عليكِ حياتك، ساعتها هتعرفى أنا ليه مهتم بالموضوع ده.

ــ أنا آسفة.

ــ لا، عادى يا دكتورة، الحمد لله على قضاء الله.

قضية جديدة طرأت فى ذهنى، لكن، هذا ليس المكان ولا الوقت

المناسبان، لمناقشة هذه الأزمة.

وصلنا إلى العنبر المتواجدة به سميرة، كما توقعنا تمامًا، لقد وصلت الأم بمفردها فى موعد الزيارة الرسمية.

قبل أن يهم صديقى الصحفى متوجهًا نحو سميرة، أشرت له بالتمهل قليلًا، رسمت على وجهه علامات الدهشة والتعجب، لكنه انصاع لأمرى، وتوقَّف، أخذت بعض الثوانى، أراقب ما يحدث بين الطفلة وأمها، هناك شيء ما، يبدو أن الطفلة مرغمة على وجود الأم، الدموع التى تملأ عيون الأم، وعيون الطفلة التى تهرب من النظر إليها، توضح ذلك، هنا كما يقال فى المثل الشعبى «مربط الفرس».

لكزت صديقى الصحفى لكى نتحرك تجاههما، لم يفهم شيئًا ، لكنه تحرك حسبما فهم من إشارتى له..

توجهت بشكل مباشر تجاه سميرة، وسألتها عن حالتها الآن.

ــ عاملة إيه دلوقت يا سميرة؟.

نظرت لى الأم بدهشة، فتدخل صديقى الصحفى بحنكته قائلًا:

ــ دكتورة نسمة إبراهيم، يا مدام، من أشطر الدكاترة المتخصصين فى الحالات اللى شبه حالة بنتك.

انبهرت الأم بالمقدمة التى قدمها لى صديقى الصحفى، وردت قائلة.

ــ أهلًا وسهلًا يا ست الدكتورة.

ـ أهلًا وسهلًا بيكِ يا ست.

ـ فايزة.. اسمى فايزة يا ست الدكتورة.. أم سميرة.

ـ أهلًا وسهلًا يا ست فايزة.. أنا هنا النهاردة مخصوص علشان بنتك سميرة.

حينما ذكرت ذلك أم الطفلة «سميرة» نظرت لى الطفلة نظرة فى الحقيقة لا أعلمها، هل هى نظرة استحسان، أو نظرة رفض، فى كل الأحوال، لم تبدِ سميرة أى اهتمام، أو ردة فعل إلا هذه النظرة، التى إن دلت على شيء، فهى تدل على أن تلك الطفلة فى حالة يأس شديدة، ولديها رغبة قوية فى عدم مواصلة الحياة.

أدركت ذلك من نظراتها لنا منذ البداية، لكن الآن تيقنت منه، السؤال الذى يجب أن يطُرح الآن.

لماذا طفلة فى هذا العمر، يمتلكها هذا الشعور السيئ؟!

يبدو أن التجربة التى مرت بها، كانت مثيرة جدًّا، وتحمل من المعاناة ما لم يتحمَّله بشر، خصوصًا فى هذا العمر!.

يجب أن أبدأ من الآن فى البحث عن تلك الإجابات.

طلبت من فايزة أن نتحدث قليلًا على انفراد، وانصاعت إلى طلبى بشكل مباشر دون تردد، وما إن وصلنا إلى باب العنبر، إلا وأخبرتها بما أريده.

ـ عايزة أعرف إيه اللى حصل بالضبط لبنتك؟!

يبدو أن السؤال أربك جميع الحسابات، على الرغم من منطقيته.. تبدلت ملامح فايزة، وظهر جليًّا عليها القلق، وراحت تبحث عن الكلمات التى ينبغى أن ترد بها على السؤال.

ــ الموضوع طويل أوى يا دكتورة.

ــ و أنا مستعدة أسمع.

ــ بس لا ده الوقت، ولا المكان، اللى نتكلم فيه.

فى الحقيقة، أصابت فايزة، ولم أجد ردًا على قولها هذا، إلا ابتسامة عريضة ملأت وجهى، ربما أردت أن أبعث من خلالها، رسالة اطمئنان لها، كى تتأكد أننى بالفعل هنا من أجل المساعدة.

ــ أكيد طبعًا، بس كان لازم تعرفى إنى هنا، وعلشان أقدر أساعدكم بجد، يبقى لازم أعرف اللى حصل، ومن غير ما نخبى على بعض حاجة.

هزت فايزة رأسها، وهى فى حالة رضوح تام، واستسلام، عيناها وملامح وجهها يقولان، إن ما حدث شيء عظيم، وما سوف يحدث أيًّا كان الحدث، لن يكن أعظم مما سبق.

ــ مش هاخبى على حضرتك حاجة، بس توعدينى، إنك تساعدينى، وتساعدى بنتى.

ــ أوعدك طبعًا، يللا بقى نرجع للبنت علشان متقلقش.

وبالفعل عدنا إلى سميرة، التى كانت تهرب من نظرات الجميع

نحوها، أعرف هذا الشعور جيدًا، إنها تشعر بأن جميع من حولها يعلم ما لحق بها، حتى وإن لم يكن هذا الشعور من الآخرين تجاهها غير حقيقى، إنها قناعة داخلية يصعب على طفلة فى عمرها أن تُبدلها.

يبدو أننى سوف أعانى كثيرًا مع تلك الحالة، لكن، لا بأس، إنها الرسالة التى كلَّفنا بها المولى ــ عز وجل ــ نحمل معانات الآخرين، وآخرون يحملون معاناتنا، نخوض حروبًا بالوكالة عن الآخرين، ضد جنود الشر فى الأرض.

أنا على قناعة تامة بذلك، ولن أتراجع عما أقدم عليه.

الجيش القوى الذى لا يقهر، هو من يتسلَّح جيدًا للمعركة التى أقبل عليها، وأول هذه الأسلحة هى، الإيمان بالله، إن الإيمان بالله أقوى سلاح يمكن أن يستخدم فى تلك المواجهات النفسية العنيفة، والحالة التى سوف أحارب من أجلها هذه المرة، فى حالة انهيار تام، ربما ليس من الدقة، أن أصف سميرة بضعف الإيمان، هى مجرد طفلة، فى أوائل مرحلة البلوغ، لم ينضج عقلها بعد، لم تدرك المعانى الحقيقية للإيمان الحقيقى الذى أقصده، لكن لابد أن يكون هذا هو المدخل، يجب أن أقوم بإعادة الثقة للطفلة فى نفسها، الأمر ليس باليسير، لكن، ليس بالمستحيل أيضًا .

ثانى الأسلحة التى يجب أن تتوافر فى تلك الحرب، هى المعلومة الكاملة بكل التفاصيل، أظن أننى سوف أحصل على ذلك من فايزة،

هى الآن مستعدة لتقديم جميع ما تملك من معلومات فى مقابل أن تنجو ابنتها مما هى فيه.

ثالثًا.. التخطيط الجيد يؤدى إلى نتائج مبهرة.

إذًا ما هى الخطة، وما هى نقطة الانطلاق التى سننطلق منها، سميرة، نعم، سميرة هى نقطة الانطلاق التى يجب أن نبدأ منها، من الضرورى جدًّا أن تكتسب الثقة فى نفسها، وإن أردنا أن نقوم بذلك، ونخرجها من تلك العُزلة التى تعيشها الآن، علينا أولًا أن نعزلها عن أعين الناس المحيطين بها، نعم، أولى خطوات الخروج من العُزلة هى العُزلة نفسها.. أرجو ألا تتعجب من تلك النظرية، سميرة الآن لما تنظر إلى أى شخص حولها تستشعر أنه يعلم حقيقة ما حدث لها، مما يزيد عليها الضغط النفسى، والعبء، لذلك سوف أقوم بعزلها عن كل المحيطين، حتى أستطيع أن أعيد لها الثقة بنفسها، وتستطيع أن تواجه نظرات الجميع حولها، دون أن تظن أن تلك النظرة تحمل لها اتهامات، أو ما شابه ذلك.

حتى أتمكَّن من ذلك، كان من الضرورى جدًّا أن أطلع على التقرير الطبى لحالة سميرة، حتى أستطيع أن أتعامل معها بالشكل الدقيق صحيًّا، فى المرحلة المقبلة.

بالفعل تركتها لبضع الوقت، وطلبت من فايزة ألا تذهب من جوار سميرة حتى أعود، حتى وإن انتهى الموعد الرسمى للزيارة.

ـ طب وبتوع الأمن يا دكتورة.

ـ أنا هاسيبلهم خبر، متقلقيش، وأى حد يكلمك قوليله أنا مستنية الدكتورة نسمة إبراهيم، هى عند الدكتور رئيس القسم وجاية، ماشى.

ـ حاضر يا دكتورة، ربنا يستر عرضك.

هذه الدعوة، كانت كفيلة أن تبث بداخلى حالة من السعادة التى لا توصف.

تركتها وذهبت إلى الطبيبة التى تتابع الحالات بداخل العنبر، بالطبع التقينا فيما سبق، لكن هذه المرة الحديث سوف يأخذ مجرى آخر عن المرة السابقة، ما إن وصلت لباب الغرفة، إلا وتوجهت نحو الممرضة «هالة» وسألتنى.

ـ خير يا دكتورة، فيه حاجة.

ـ إدى الدكتورة خبر إنى عايزاها.

ـ حاضر.

ثم طرقت الباب نيابة عنى، ودخلت كى تحصل على إذن لدخولى، إنه الروتين، لا علاقة لي بهذا المسمى، فقط أنظر له من منطلق النظام، وهذا لا يزعجنى، بل بالعكس يسعدنى كثيرًا.

هرولت الطبيبة نحوى مسرعة، ما إن سمعت من الممرضة أننى أقف على باب الغرفة، رحبت بى وطلبت من هالة أن تحضر لى شيئًا

أتناوله، وبعد إلحاح منها، طلبت أن تحضر لى فنجان قهوة، وتناولته أثناء جلوسي مع الطبيبة المشرفة على حالة سميرة وهى تشرح لى جميع التفاصيل الطبية الخاصة بحالة الطفلة.

فى الحقيقة، سميرة لا تعانى من أى مرض عضوى خطير، لكن، هناك أزمة كبيرة نفسية، إثر ذلك الاعتداء الوحشى الذى تعرضت له.

هكذا وصفت الطبيبة حالة سميرة، كما أخبرتنى بكورس العلاج الذى كتبته لها، معظمه مهدئات تجعل الطفلة فى حالة استرخاء تام، رغم نشاط ملامح وجهها، إلا أن عقلها يكون مسترخيًا بعض الشىء.

وحين عرضت عليها أن أتولى أمر علاج هذه الطفلة، لم تمانع نهائيًا ، كان الأمر مجرد اختبار للطبيبة الصغيرة، فى الحقيقة، كنت أود أن أسمع رفضها، ومبررات هذا الرفض، كنت أظن أنها سوف تفعل مثلما فعلت وأنا فى عمرها، سابقًا، وأخذت أضحك، حتى سألتنى عن سبب هذه الضحكات.. وكان من الواجب أن أخبرها، لعلها تتعلم.

ــ أصل افتكرت حاجة كده ضحكتنى.. تحبى تعرفى افتكرت إيه؟!

ــ ياريت يا دكتورة، يشرفنى طبعًا.

ـ كنت فاكرة إنك شبهى.. بس اكتشفت العكس.

فى تلك اللحظات تنظر لها الطبيبة بدهشة والحيرة والفضول يملآن ملامح وجهها قائلة.

ـ مش فاهمة حضرتك يا دكتورة؟ ممكن توضحى.

ـ شوفى.. لما كنت فى سنك اتعرضت لنفس الموقف، وأستاذى دخل علىَّ يطلب منى إنى أسيب له الحالة اللى أنا شغَّالة عليها، لكنى فى الوقت ده رفضت وصممت إنه ما ياخدش الحالة منى، فى الوقت ده كان كل اللى داير فى عقلى ساعتها إنه شايفنى مش قادرة أعالج الحالة، وحسيت طلبه ده إهانة ليا وتقليل من قدراتى، وكنت متمسكة جدًّا برأيى.

ـ وبعدين؟!

ـ وبعدين اكتشفت أن المريض قريبه.

لم يسعنا فى هذا الوقت إلا الضحك بصوت عالٍ أمام الجميع.. فهو أمر حينها كان غير متوقع، ولم يخطر على بال أحد من الموجودين، حتى صديقى الصحفى، لم يكن يتوقع أن أكون على هذا القدر من التعنت وعدم التعاون والتفاهم.

انتهى لقائى الأول مع سميرة، كان لقاءً مهمًا على المستوى الإنسانى، والعملى أيضًا، يبدو أن حالة الطفلة التى لم تتجاوز الثالثة عشرة سوف تكشف لنا الكثير عن هذا الرجل الذى انتهك

آدميتها، وتعامل معها بـوحشية بالغة، يبدو أنها سوف تكشف لنا أسرارًا كثيرة عن ذلك الكائن الحيوانى الذى يسكن بداخل هذا الكائن الآدمى المقبوض عليه الآن والمودع داخل إحدى المستشفيات الخاصة تحت حراسة مشددة.

وما إن خطرت ببالى تلك الجملة العريضة «مستشفى خاص» إلا وبدأت فى عقد مقارنة عجيبة، ما كان لى أن أقوم بعقدها، لولا ما رأيته فى رحلتى القصيرة وأنا أقوم بزيارة المجنى عليها «سميرة» فارق كبير للغاية فى أسلوب العلاج بين هنا وهناك، بين مستشفيات الفقراء أمثال سميرة وغيرها وبين مستشفيات الأغنياء أمثال هذا الكائن، نعم، المستوى المادى يتحكم فى كل شىء، تلك هى القاعدة التى لا يجب أن نغفلها جميعًا.

لكن وجب علىَّ أن أكسرها وأحطم قيودها ما دمت أستطيع أن أقوم بذلك، لا يهم كم سأربح من علاج مريض، كل ما يهم أن أربح معالجته، وتعود له ابتسامته، ويبدأ من جديد حياة بلا ألم،

نعم.. أهدافى وأفكارى تجعلنى غريبة بعض الشىء، وتجعل الآخرين ينظرون لى بنظرة غير معلومة، ربما تكون سطحية، وفى أحيانٍ أخرى، عميقة، على كلٍ، أنا أستمتع بهذا الأسلوب أثناء العمل.

أثناء رحلة مغادرتى المستشفى مع صديقى الصحفى، كنت

شاردة التفكير فيما هو قادم، يبدو أن ما أقدم عليه ــ فى أشياء كثيرة ــ غامض، حالة هذا الرجل الذى يدعى «عارف» تستحق الكثير من التركيز والخوض فى عالمه هو.. يجب أن أبحث فى أعماقه حتى أصل إلى موطن اتخاذ القرار بداخله، حينئذٍ سوف أعرف ما هو الدافع الحقيقى لارتكابه تلك الأعمال الحيوانية، التى قام بها تجاه فتاة ربما تكون فى عمر أصغر أبنائه.

سألنى صديقى الصحفى عما أنوى فعله، كنت فى تلك اللحظات أقوم بترتيب أفكارى فى هذا الشأن، نظرت له مبتسمة قائلةً.

ــ لسه هاشوف.

ــ مش فاهمك يا دكتورة، يعنى هتساعدى البنت ولا مش هاتساعديها؟

ــ أكيد طبعًا هاساعدها.. عندى لك سؤال، هو أنت ليه مهتم بالبنت دى أوى كدة.

ابتسامته الساخرة كانت تحمل الكثير من المعانى التى جعلتنى أنتظر إجابته بشغف.

ــ أقول لحضرتك، أنا متجوز من 15 سنة، متجوز عن قصة حب بدأت من سنة أولى جامعة، ولسة مستمرة، وهاتفضل مستمرة لحد ما أموت، الحياة علمتنى إن الأنثى رغم ضعفها الظاهرى، قوية جدًّا داخليًّا، فى مواجهة الحياة والمتاعب والصعاب، والعكس لما تحب،

قلبها بيتحول لنقطة ضعف، علشان كدة الأنثى ليها مكانة كبيرة جدًّا جوايا، على مدار الـ15 سنة اللى عشتهم متزوج وأنا نفسى فى طفل، وتكون بنت، أشوف فيها شخصية أمها، لكن ربنا ما رزقنيش بنعمة الإنجاب من الأساس، أظن إن حضرتك كدة فهمتِ أنا ليه مهتم بقصة «سميرة».

ــ أنا آسفة.

ــ لا خالص يا دكتورة، مفيش داعى للأسف.

الفصل الرابع:

لن تستطيع أن تهزم الأقدار التى كتبت عليك، أقصى ما تستطع فعله فى هذا الأمر هو أن تخفف من حدة القدر، بالدعاء والرجاء، ويعود هذا إلى مدى صدق قلبك مع الله..

لذلك.. أدعوك بكل إخلاص، أن تخلص فى معاملاتك مع الله، حتى يجنبك الله الكثير من الأقدار السيئة التى تستحقها كجزاء من الله على ما تقوم به من أعمال.

للقهوة مذاق خاص عندما تتناولها فى الصباح، أنا أحب أن أتناول فنجان قهوتى وأنا أرتب جدول أعمالى اليومى، خصوصًا حينما يكون الأمر به الكثير من المتاعب والألغاز، مثل التى تحيط بذلك الجانى «عارف» والذى بدا لى أنه شخصية على قدر كبير من الدهاء، لذا، وجب أن أتناول فنجان قهوتى وأنا جالسة فى شرفتى أستنشق هذا الهواء النقى فى أول لحظات الشروق.

كل منا له أسلوبه الخاص فى العمل، وأنا أيضًا، أفرض أسلوبًا

معينًا فى عملى، حسب الحالة التى أعمل عليها.

فى تمام الساعة السابعة صباحًا هاتفت المسئول الأمنى عن حالة عارف، أخبرته أننى سوف أكون بالمستشفى فى تمام الساعة الثامنة صباحًا، اندهش بعض الشىء لهذا الموعد، لأن هذا الموعد على غير المعتاد منى لديهم، فأنا معروف عنى أنى أبدأ عملى فى تمام العاشرة صباحًا، لكن الأمر مختلف.

أوضحت له أسبابى ودوافعى، تقبلها وأخبرنى بأنه سوف يرسل من يكون فى استقبالى بالمستشفى، طلبت منه ألا يخبر المريض بقدومى فى هذا التوقيت.

نعم، هناك هدف لى فى تلك الزيارة، وفى توقيتها أيضًا، ويجب أن أنفذ ما أفكر فيه بدقة وإحكام، حتى أصل للحقيقة التى أسعى إليها.

فى تمام الثامنة إلا دقيقة واحدة، كنت أمام غرفة عارف، بدا لى أن المسئول الأمنى قام باتصالاته فور مهاتفتى له.

وجدت أحد رجال الشرطة المسئولين عن القضية فى انتظارى بداخل الغرفة، وكما طلبت، كان عارف غارقًا فى النوم، لم يوقظه أحد، وهذا كل ما أريده، تصافحت أنا ورجل الشرطة، ومن ثم، أيقظنا «عارف».

كل ما أريده، هو تفاصيل ملامح وجهه، ما هى ردة فعله حينما يستيقظ؟ بل والأهم، ما هى ردة الفعل حينما يشاهدنى أمامه؟ ما هو

الأسلوب الذى سوف يتحدث به؟.

بدأ الضابط فى إيقاظه.

ــ شيخ عارف، يا شيخ.

ــ إيه فى إيه، روح واتركنى أكمل نوم.

هنا تدخلت عن عمد:

ــ اصحى علشان عايزاك.

وما إن سمع صوتى إلا وقام وهو يدقق فى ملامح وجهى، والسعادة تغمره.

ــ يا صباح الخير، والهنا، والسرور.

ــ صباح الخير.. لو سمحت يا فندم، ممكن تخلى العسكرى ياخده، علشان يغسل وشه، ويفوق.

ــ طبعًا يا دكتورة، خده يا ابنى ع الحمام.

فى الحقيقة، كنت طلبت من الضابط أن يجعل العساكر تعامله ببعض المهانة، أرغب فى ذلك، حتى أضعه تحت ضغط نفسى، بالفعل، أخذه العسكرى وتوجه به نحو الحمام، لم أكن أعلم أن الضابط يحمل بين ضلوعه غضبًا شديدًا تجاه «عارف» لقد أمر العسكرى أن يرافقه حتى داخل الحمام.. ونجحت الخطة...

خرج «عارف» من الحمام، وهو فى حالة غضب شديدة جدًّا من تلك المعاملة، ويطالب بأن نجلب له أحدًا من المسئولين عن سفارة

دولته هنا فى القاهرة، ربما طلبه حق شرعى، لكن، هناك أمرًا آخر، لم يكن يعلمه، وهنا قررت أن أخبره به.

ــ حقك طبعًا إنك تطلب السفارة، بس عايزاك تهدى وتركز، وتحسب طلباتك وعواقبها قبل ما تطلبها، أنا ممكن أتصل بالسفير حالًا يكون قدامك، بس فى نفس الوقت، أتصل بكل وسائل الإعلام تكون هنا، فى الأوضة، بتصور زيارة السفير للمواطن اللى اغتصب طفلة لم تتجاوز الـ13 سنة، وأكيد السفير هايسألنى عن حالتها، وساعتها هاحكى له كل التفاصيل، وكمان الإعلام هايطلب منى تفاصيل الواقعة، وبرضه هاحكيلهم كل التفاصيل، وهاقولهم تقرير الطب الشرعى احتوى على إيه، وأنواع الإصابات اللى حصلت للبنت، خصوصًا اللى فى فتحة الشرج ، ها، أخلى حضرة الضابط يتصل بالسفارة.

كانت خطة فى منتهى الذكاء، لم أكن أقصد تهديده نهائيًا، وذلك لأن السفارة بالفعل لديها خبر بالواقعة، وبكل التفاصيل التى تخص الواقعة، لكنها تنتظر التقرير النهائى، حتى تمارس الإجراءات الرسمية حسب الاتفاقيات الموقعة بين البلدين، فى حقيقة الأمر، هى قضية محرجة للغاية، ويتمنون أن يثبت التقرير مرض مواطنهم.

لكن ما كنت أريده مما سبق، هو قياس مدى الوعى والإدراك لدى «عارف» حينما يعلم مدى خطورة الموقف، ومدى الفضيحة

التى سوف تلحق به، وأنتظر رد فعله، هل سيصر فى مطالبه، على حضور السفير، أو سوف يتوقف خوفًا من الفضيحة، لو أكمل فإنه بلا شك ذكى ويدعى المرض، أما لو توقف، فإنه بلا شك مريض ويجب أن نتعامل معه على هذا الأساس، دون النظر إلى جريمته الجنائية التى ارتكبها..

لكن لم يحاول أن يفكر للحظة فى خطتى، أكمل بمطالبة السفير، وعدم حضور الإعلام، أدركت فى تلك اللحظة أننا نتعامل مع شيء ذكى، لكنه ليس على الدرجة الكافية من الذكاء، سوف يرهق تفكيرى بعض الشيء، لكن لا بأس، الأمر ممتع بالنسبة لى.

حينما قدم لى طلبه، ابتسمت، ووقفت ضاحكة، وأخبرته أننا سوف نرحل الآن، وسوف نعود فى تمام الساعة الثالثة، وطالبته بأن يفكر فى طلبه جيدًا.. حضور السفير مرتبط بحضور الإعلام، وعدم حضور الإعلام مرتبط بعدم حضور السفير، لن ينفصلا.

ثم تركته وغادرت الغرفة، كان الضابط يود أن يطرح سؤالًا، ملامح وجهه كانت تدل على ذلك،

بمجرد خروجنا من الغرفة، طرح سؤاله بدون مقدمات.

ــ دكتورة نسمة، هو إنتِ ليه قولتيله أنك هترجعى الساعة 3

ــ علشان يعيد تفكيره.

ــ فى إيه بالضبط.

ـ فى نوع الجنون اللى عايز يثبته.

ـ هو مش مجنون.

ـ ومش عاقل.

ـ مش فاهم يا دكتورة.

ـ متستعجلش يا حضرة الضابط.

ربما أسلوبى فى الرد، زاد الحيرة لديه، لكنه اقتنع بشىء مهم، ألا وهو إننى أعرف جيدًا ما أقوم به، واطمأنَّ يقينه لذلك.

بعد مغادرتى للمستشفى، نظرت إلى ساعة يدى التى تشير إلى التاسعة والنصف، هناك متسع من الوقت، وهناك أشياء كثيرة فى جدول الأعمال اليومى، لكن، كنت أرغب فى رؤية «سميرة».

فى حقيقة الأمر، لم تكن فى البرنامج اليومى لى، لكن شيئًا ما بداخلى يدفعنى لذلك، أجهل ما يكون هذا الشىء، لكنى أرغب فى تحقيقه، لم أضع الوقت فى تفسير رغبتى الداخلية..

أخذت سيارتى، وتوجَّهت نحو المستشفى العام، وما إن وصلت أمام المستشفى، إلا واستقبلت مكالمة هاتفية من صديقى الصحفى.

ـ آلو.

ـ آلو.. أيوه يا دكتورة.. حضرتك فين.

ـ خير فى إيه؟

ـ سميرة.

ـ مالها ؟!

ـ حاولت تنتحر.

ـ إيه!!!

لم أكن أتوقع سماع خبر هكذا، كيف لطفلة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها أن تفكر بهذا الأسلوب، هل وصلت إلى هذا الحد من كراهيتها للحياة ؟! الأمر شاق للغاية.

وجب علىَّ التدخل السريع، ومعالجة الأمر، غادرت سيارتى متوجهة نحو الباب الرئيسى للمستشفى، فى الحقيقة، هى المرة الأولى التى أستشعر فيها الخوف على حياة شخص أجهله، صعدت درجات السُلم مسرعة، وكأننى فى سباق مع الزمن، لا أهتم إلى أى شيء حولى، كل هدفى هو الوصول إلى غرفة «سميرة» تلك البريئة التى اغتصبها مطامع وشهوات الآخرين.

لن أتركها ترحل، قبل أن تقتص، لشرفها، وعرضها، وكرامتها، وآدميتها.

إنها معركتى، التى لن أستسلم فيها، ولن أنهزم، ولن أقبل بأن يكسرنى نفوذ هؤلاء الذئاب البشرية، التى انتهكت عرض طفلة بمنتهى التلذذ، وصلت غرفتها، مجموعة من الأطباء والممرضين حولها، وأيضًا رجلان من رجال الشرطة، بالإضافة إلى أمها، خالتها.

توجهت مباشرةً نحو الطبيبة المعالجة، أستفسر منها عما حدث،

أخبرتنى، بأن «سميرة» استيقظت فى حالة هياج عصبى شديد، وحاولت أن تلقى بنفسها من شرفة الغرفة،

المدهش بالنسبة لى، هو وضع «سميرة» على الفراش، تدير ظهرها للجميع، وتدفن وجهها أسفل المخدة، لا ترغب فى رؤية أحد، ولا رؤية الضوء، ترفض أن تستمع إلى تلك الأصوات المحيطة بها، كل ما تود فعله هو العزلة، بعد محاولة الانتحار الفاشلة.

كل المؤشرات، والدلائل تؤكد أن هذه المحاولة سوف تتكرر مجددًا، لذا وجب التدخل بأقصى سرعة ممكنة، لا يوجد حل إلا نقلها لمستشفى خاص أو عيادتى الخاصة، الأمر محير للغاية، وليس هين عليها كل ما مرت به، ومازالت، يجب أن أتخذ القرار الحاسم الآن..

طلبت من الطبيبة المعالجة أن تحضر لى أمر نقلها إلى عيادتى الخاصة، وذلك بعد إقرار من ولى الأمر، كان الأمر فى شيء من اللا معقول بالنسبة للجميع، كيف لطبيبة شهيرة مثلى، على حد وصفهم تتخذ قرارًا هكذا دون الرجوع إلى ولى أمر المريضة. لكننى فى النهاية اتخذته وأتحمل عواقبه..

توجهت الطبيبة المسئولة لكى تقوم بتجهيز الأوراق المطلوبة، وأخذت الأم ووقفنا فى جانب الغرفة، وبدأت أتحدث لها.

ــ شوفى يا ست فايزة.. أنا معرفكيش، ومعرفش إيه الدافع الحقيقى اللى وصل بنتك للحالة اللى هى فيها، ولا أعرف أنت

دورك كان إيه فى الجريمة دى، وإزاى اللى اسمه عارف ده وصل لبنتك، ورغم ده كله أنا قررت أتحمل المسئولية، وأنقل بنتك عندى، ودى مسئولية مش سهلة، خصوصًا إنى أنا الدكتورة المسئولة عن كتابة التقرير الطبى لحالة «عارف» اللى هو الجانى، أنا مفيش قدامى حل غير إنى آخدها عندى العيادة وبعدين أحولها لمستشفى خاصة، ونشوف هنعمل إيه بعد كده، بس لازم تساعدينى زى ما أنا هاساعدك.

ــ أنا من إيدك دى لإيدك دى يا دكتورة اللى هتأمرينى به هانفذه.. بس انقذى بنتى الله يخليكى، أنا معنديش غيرها، أبوس إيدك.

ــ طيب يلا روحى امضى على الأوراق وأنا هاكلمهم يجهزوا العيادة، وبعدين نشوف إيه اللى هايحصل.

أصبحنا كخلية نحل تعمل، اكتملنا حينما وصل صديقى الصحفى للمستشفى، طلبت منه أن يقوم بتجهيز سيارة إسعاف كى نتمكن من نقل «سميرة»، الجميع يعمل لخدمة هذه الطفلة التى نجهل من تكون فى الأساس.

طلبت من طاقم التمريض أن يعطوا «سميرة» حقنة مهدئة تساعدها على النوم حتى نتمكن من نقلها بهدوء، لم تمر ساعة إلا وشرعنا فى نقلها، كنت قد هاتفت العاملين فى عيادتى بتجهيز حجرة خاصة لها، بمجرد وصولنا، كان كل شيء على أتم الاستعداد،

اطمأننت على «سميرة» ثم نظرت إلى ساعة يدى التى تشير إلى الثانية.

ياله من يوم مرهق، يجب أن أتوجَّه إلى تلك المستشفى الخاص الذى يرقد فيه «عارف» حتى أستكمل معه الجلسات، تركت الجميع فى العيادة وتوجهت إلى سيارتى فى طريقى له.

وصلت فى موعدى المحدد، رغم معاناتى من الزحام الشديد، لكن لا ضرر فى ذلك، أصبح الزحام شيئًا معتادًا فى حياتنا، مثله مثل المأكل والمشرب والملبس،

بمجرد دخولى عليه، ابتسم، كان متأهبًا لهذه الجلسة، يبدو أنه استعد جيدًا، نظرته توحى بذلك، سوف نرى ما يحمله لى من أساليب خفية، أظنه يتمتع بقدر وافر من الدهاء، رغم قلة ذكائه.

ــ مساء الخير.

ــ مساء النور، حضرتك فى موعدك بالضبط.

ــ بحب النظام.

ــ و أنا أحب المنظمين.

ــ كويس، معنى كده إنك هتكون متعاونًا معايا.

ــ أكيد، ومين يرفض يتعاون مع قمر مثلك.

ــ ماشى، هانشوف، يلا نبدأ.

ــ مستعد، اتفضلى.

ــ عرفت سميرة إزاى؟!

ـ مين سميرة اللى بتحكى عنها هذه.
ـ البنت اللى هتكت عرضها.
ـ أنا هتكت عرضها، باعترض، أنا تزوجتها.
ـ معاك ما يثبت.
ـ فى الحقيقة كل الأوراق ضاعت منى.
ـ مش مصدقاك.
ـ ما يخصنى تصدقى ولا ما تصدقى.
ـ طيب قوللى عرفتها إزاى.
ـ رجالتى هما اللى جبوهالى، زى ما جابوا اللى قبلها.

هنا توقَّفت قليلًا مندهشة، الجملة ليست عابرة، يبدو أنها ليست الضحية الأولى له، ليس ذلك فحسب، بل يبدو أن هناك تشكيلًا عصابيًا يعمل تحت أمره فى هذا الشأن، وجب التدقيق فى الأمر، والتأكد منه.

ـ أفهم من كده إن فيه ناس شغالة معاك فى الموضوع ده.
ـ لا، شغالين عندى.
ـ مين همه.
ـ مقدرش أقولك غير لما توعدينى إنك تساعدينى.
ـ أنا من غير ما وعدك بساعدك.
ـ جميل، والمقابل اللى هاتطلبيه هاتخديه.

هنا انتهت الجلسة، كعادتى بالطبع، وقفت دون أن أرد عليه بأى كلمة، وتوجَّهت للخارج، وقبل أن أصل لباب الغرفة وأغادرها أبلغته.

ـــ دلوقت اختلفنا، وانت اللى لازم تساعد نفسك.

ثم فتحت باب الغرفة ورحلت.

الفصل الخامس:

لا تبحث عن الجانى.. بل ابحث عن الدافع.. الضحية دومًا ما تبكى على ما لحق بها من ضرر.. الجانى دومًا ما يبكى على ذلك الذنب الذى ارتكبه فى لحظة تملك فيها شيطانه منه.. وأوقف عقله.. وأصم أذنيه عن صوت ضميره الرافض لهذا الجرم.

الدافع الحقيقى وراء كل جريمة.. هو ذلك الشيطان الذى ينتصر عليك فى لحظات الضعف.

فى الواقع إن أكثر ما يؤلمنا فى تلك الحياة.. هى القضية التى تخص الشرف.. والكرامة.. لأنها تمثل بداخلنا العقيدة.. الفطرة تحركنا بشكل لا إرادى نحو نصرة المظلوم.. وفى بعض الأحيان الانتقام من الظالم الذى يطغى ويجور على حق الضعيف.

دائمًا ما يزعجنى أمر هؤلاء الذين يظنون أنهم باستطاعتهم أن يشتروا كل شيء بالمال.. لم تكن الواقعة الأولى لى مع هؤلاء.. حينما عرض «عارف» الرشوة علىَّ.. من أجل أن أكتب التقرير الطبى

الخاص بحالته فى صالحه.. بهدف تبرئته من الجرم الذى ارتكبه فى حق هذه الطفلة «سميرة».. لذا.. كان قرار المغادرة، وإنهاء المقابلة حتميًّا، فأنا أفقد أعصابى سريعًا، ولا أستطيع التحكم فى ردود أفعالى تجاه هذه العينة من البشر.

أكره بشدة، هذا الأسلوب فى العمل، بل، هذه النوعية من البشر، من تظن نفسك، كى تشترى ضمائر الآخرين، كيف تجرؤ، أن تتعامل مع كل شيء محيط بك، على أساس أنه سلعة قابلة للبيع والشراء، عفوًا، هؤلاء من وجهة نظرى مجرد مختلين علقياً.

ضمائرنا ليست سلعة للبيع، المبادئ غير قابلة للتغيير، أو التحوير، والعفو عنكم، أمر غير مطروح بالمرة للنقاش، أو حتى مجرد التفكير فيه.

كل الأفكار السابقة، كانت تدور بذهنى أثناء عودتى من المستشفى الخاص الذى يحتجز فيه «عارف» ربما أثار غضبى بعض الشيء، لكنى الآن على ما يرام، كل ما علىَّ فعله الآن هو أن أتوجه إلى عيادتى الخاصة، حتى أتابع حالة «سميرة» إنها فى حاجة كبيرة للجهد، والمتابعة الطبية الجيدة، إن محاولة الانتحار التى عرضت نفسها لها، كانت بمثابة جرس إنذار، ليس من السهل أن أتغاضى عن الانتباه له، لكن أيضًا يجب ألا تمكث كثيرًا هنا فى عيادتى الخاصة، حتى أتجنَّب الشبُهات فى تلك القضية.

أمر محير للغاية، أن تكون الخصم والحكم فى الوقت ذاته، ضميرى يجبرنى أن أقف بجوار هذه المسكينة بشكل شخصى، وعملى يحتم علىَّ أن أتواصل مع ذلك الجانى «عارف» الذى أود أن أمزق جسده بأسنانى، فى النهاية، لا يصح إلا الصحيح، سأفعل ما يجب علىَّ فعله، وليكن ما يكون..

أوقفت سيارتى بالقرب من العمارة التى تقع بها العيادة، ثم ترجلت قليلًا وصعدت، مستخدمة المصعد، كنت أتشوق لرؤية «سميرة»..

تُرى، هل هدأت قليلًا داخليًّا؟!

هل بدأت فى مراجعة نفسها؟!

هل أخذت قرار التراجع عن فكرة الانتحار؟!

سوف نكتشف كل شيء الآن، طرقت الباب عليها، فتحت، ثم دخلت، كانت أمها هى من تنتظر الطارق، أما هى فلا تبالي، لا تهتم بأى شيء، أمر طبيعى ولا بد ألا نتسرع فى اتخاذ القرار، أو إصدر الحكم.

ــ مساء الخير.

ــ مساء النور يا دكتورة.

ــ ها، إيه الأخبار، سميرة عاملة إيه دلوقت؟!

ــ الحمد لله، أحسن من الصبح.

ـ طيب، الحمد لله.

اقتربت منها وجلست على طرف الفراش، وضعت يدى على جبهتها، أتحسس درجة حرارة جسدها، مطمئنة بعض الشيء، الفضل يعود إلى تلك العقاقير القوية التى تناولتها، كى تهدئها، كانت تجب مناقشتها، الحديث معها بعض الشيء.

ـ عاملة إيه دلوقت يا سميرة؟!

الرد كان على عكس المتوقع تمامًا!!!

مجرد نظرة من عينيها لى، ثم انهمرت فى البكاء، كانت كفيلة لتعبر عن حالتها الآن.

الرد جاءها سريعًا، ابتسمت وبدأت فى الحديث.

ـ عيطى.. عايزاك تغرقى المكان كله بالدموع.. عادى جدًا ومش عيب.. بالعكس.. ده مفيد ليكى.. الدموع بتنضف جروح الروح، آه، متستغربيش إنى بقولك الكلام ده، أنا مش بعرف أزوق كلامى، بس بعرف أقول الحقيقة، وأواجه المشكلة اللى أنا فيها، عارفة ليه، لأنى أكبر من المشكلة دى، أيوه، لو أنا مش أد المشكلة ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ مكانش حطنى فيها، عارفة ربنا قال إيه فى القرآن.. «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»..

فى تلك اللحظات كنت أنظر إلى عينيها، التى كانت تنظر لى ومازالت تنهمر منهما الدموع، وتطرح سؤالًا مهمًّا للغاية:

لماذا أنا؟!

وظيفتى الأساسية أن أقطع عليها الآن كل سُبل التفكير فيما يؤدى إلى تلك المرحلة مجددًا..

ــ عارفة عايزة تقولى إيه!! عارفة إنك بتقولى اشمعنى أنا اللى يحصل فيا كده، لا، وعارفة كمان إنك بتقولى لربنا ليه سيبته يعمل فيا كده، عارفة كل الكلام اللى بيدور جواكى، وسمعاكى، وشايفة كل الوجع اللى جواكى..

فى تلك اللحظات أدارت وجهها عنى، جيد جدًّا، أنا الآن أحرز تقدمًا، هى الآن استبدلت الهروب بالمواجهة الداخلية، طالما هربت من كلماتى اللدغة، من المؤكد أنها تدرس المواجهة الآن.. لكن، لا يجب أن أتوقف قبل أن أخبرها شيئًا مهمًا.

ــ تمام، بس آخر حاجة عايزاك تعرفيها، إن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ حرم على نفسه الظلم، يعنى مش ها يقبل بظلمك نهائيًا، والدليل أنه سخر ليكى واحدة زيى، تقف جنبك، وتساعدك علشان تتجاوزى محنتك، وترجعى أقوى من الأول، العمر لسة طويل قدامك يا سميرة، يمكن الموقف اللى حصل ده، حصلك دلوقت علشان يقويكى، ويخليكى تقدرى تواجهى اللى جاى، أنا مش عايزه أسمع منك أى رد فعل دلوقت على كلامى ده، كل اللى عايزاه، إنك تفكرى فيه، وأول ما تبقى جاهزة قوليلى.

ثم تركتها وغادرت الغرفة، لا يجوز أن أبقى أكثر من ذلك..

الجرعات المكثفة فى العلاج غالبًا ما تقتل المريض، ويندرج ذلك تحت مسمى الإهمال الطبى، وهذا المصطلح عدوى الأول.

حين غادرت الغرفة، أتت خلفى «فايزة»، تريد أن تعرف منى مدى خطورة حالة ابنتها، كان من الضرورى أن نتحدث، هناك تفاصيل كثيرة يجب أن أطلع عليها، حتى أستطيع معاونة «سميرة».

أعلم أن هناك الكثير من الأسرار التى أجهلها فى جعبة «فايزة» وهى الآن على استعداد تام أن تخبرنى بكل شيء حدث، فأنا الآن مصدر الثقة الوحيد بالنسبة لها، وطوق النجاة لابنتها، لكن يبقى هناك سؤال مهم للغاية، من هو والد «سميرة»؟! وأين هو من هذه الأحداث؟!

سنعرف كل شيء، أنا لا أحب التعجل فى هذه الأمور الشائكة تحديدًا.

حين جلست على كرسى مكتبى، سمعت طرق باب المكتب، أعلم بالطبع من الطارق.

ــ ادخل.

ــ السلام عليكم يا دكتورة.

ــ وعليكم السلام، تعالى يا فايزة.

تقدمت ووقفت أمامى، طلبت منها الجلوس، وجلست،

ـ اقعدى يا فايزة.

ـ أنا جيت أشكرك يا دكتورة.

ـ على إيه؟!

ـ على وقفتك جنبى وجنب بنتى..

ـ أنا معملتش غير اللى المفروض أعمله، قوليلى يا فايزة، إيه اللى حصل بالضبط لـ«سميرة»، وإزاى وصلت للراجل ده.

ـ أنا اللى وصلتها بإيدى.

كانت إجابة صادمة بالنسبة لى، كيف لها أن تفعل فى ابنتها الوحيدة هذا، الأمر يبدو أنه يحمل بين طياته الكثير من الأحداث الشائكة.

ـ أنتِ؟!

ـ أيوه يا دكتورة، أنا اللى عملت فيها كدة.

ـ ليه؟!

ـ أهى ليه دى بقى حدوتة كبيرة أوى يا دكتورة، عايزالها وقت علشان تتحكى.

ـ وأنا مستعدة أسمع.

ـ وأنا نفسى أحكى.

هنا التقينا، فى نقطة البداية، جلبت أوراقى وقلمى حتى أسجل أهم التفاصيل التى سوف تخبرنى بها.

بدأت «فايزة» فى سرد الحكاية التى تخفيها بين ضلوعها، والتى

يبدو أنها تؤلمها بشدة، منذ زمن بعيد..

الحكاية بدأت عندما تزوجت، لقد تزوجت زوجها، عن قصة حب، مستواها المادى يوازى مستواه، كلاهما من طبقة بسيطة، زوجها رجل موظف فى إحدى الهيئات الحكومية، لم يقبل يومًا أن يكون موظفًا مرتشيًا، كان يعمل ويكد ويجتهد، بكل إخلاص، مقابل حفنة من الأموال، لا تكفى مصروف شخص واحد لمدة أسبوعين، لكنها علقت على ذلك قائلة:

ــ بس الحمد لله، بتمشى.

ثم راحت تكمل:

الحمل والإنجاب، كان بالنسبة لنا حلمًا، كنا كل ليلة نصلى لله وندعوه، أن يرزقنا بطفل، يملأ علينا أركان البيت، وبالفعل، استجاب الله لدعائنا بعد ثلاث سنوات من الزواج، لم نترك طبيبًا لم نذهب إليه، جميعهم أكدوا بأنه ليس هناك ما يمنعنا من الإنجاب، لكن، الطفل رزق، والرزق دومًا له موعد محدد، لا يعلمه إلا الله..

وهبنا الله «سميرة» كما أخبرتك بعد ثلاثة أعوام من الزواج، كنت أسعد خلق الله على وجه الأرض، وكذلك زوجى، كان يخشى على طفلته وهى ما زالت فى رحمى من الهواء، كنت فى غاية السعادة، شعور دومًا تتمنى أن تستشعره أى أنثى فى العالم، رجل يخشى عليها وعلى من فى رحمها من الهواء الذى تستنشقه.

وضعت «سميرة» فى أحد المستشفيات الحكومية، هو المستشفى ذاته الذى التقينا فيه حينما أتيت كى تشاهدى حالة «سميرة».. نعم، ربما لم نكن نمتلك المال الكافى فى تلك الفترة حتى أذهب إلى أحدى المستشفيات الخاصة وأضع فيها مولودتى التى ظللت أدعو الله أن يرزقنى بها لمدة ثلاثة أعوام متتالية، لكننى كنت فى غاية السعادة، حينما سمعت صوت صراخها، وبكائها، شعور لا يوصف، أعلم أن كل أم تعى معنى هذا الشعور، لكن، شعور الإنجاب بعد التأخر والرجاء، ثم العطاء، مختلف تمامًا.

الحال تبدل، بعد أن شرفت «سميرة»، أنا أستطيع أن أتحمل أعباء الحياة، وزوجى أيضًا، لكن الصغيرة، لا دخل لها بذلك، يجب أن تأكل، وتشرب، وتلبس، مثلها مثل من فى عمرها،

تناقشت أنا وزوجى فى هذا الأمر، وجد أن لدى كل الحق فى وجهة نظرى، بدأنا نفكر فيما هو آتٍ، وكيف سنواجه تلك المتطلبات، توصلنا إلى أن نبحث عن عمل إضافى، يقوم به بعد أن ينتهى من مواعيد عمله الرسمية، كان القرار جيدًا، لكن التنفيذ، مرهق للغاية، لم يستطع زوجى الحصول على ذلك العمل بسهولة، وكأن القدر يأخذنا إلى مصير آخر نجهله، وبالفعل، بدأنا فى السير تجاه هذا المصير..

وزوجى كان يجيد «قيادة السيارات» ويحمل رخصة مهنية تؤهله

لقيادة سيارات الأجرة، من هنا خطر بباله فكرة أن يحصل على قرض، لكنه لن يتحصل عليه من البنك، بل سوف يتحصل عليه من أحد الأشخاص، وسوف يعاملنا كمعاملة البنك فى حصد الفوائد على أمواله، ووقعت أنا على إيصالات الاستلام، وذلك لأن زوجى طلب منى أن يكون كل شيء يحمل اسمى وتوقيعى، حتى يتجنب هو المساءلة القانونية فى وظيفته الحكومية، حسب قوله.

وبحكم جهلى، فى تلك الأمور، لم أكن أعلم أن الفائدة التى سوف يتحصل عليها الرجل، أكبر بكثير من الفائدة التى يتحصل عليها البنك فى هذه الحالات، وفى صباح اليوم التالى، قمنا بشراء سيارة أجرة «ميكروباص» وقمت أنا أيضًا بالتوقيع على أوراق البيع والشراء، ونقل ملكيتها فى الشهر العقارى، واستلمها زوجى، وبدأ العمل.

فى الحقيقة كان يتفانى فى العمل منذ اليوم الأول له، يستيقظ فى السادسة والنصف صباحًا، يتناول وجبة إفطاره ثم يذهب، ويعود فى الثانية مساءً، يتناول وجبة الغداء، ويخلد إلى النوم لمدة ساعتين ونصف على الأكثر، ثم يستيقظ مجددًا، وينزل ليعمل على السيارة، ويعود تقريبًا فى الساعة الواحدة والنصف صباح اليوم التالى، يتناول وجبة العشاء ويخلد إلى النوم.

شهر كامل، يعمل بهذا البرنامج اليومى، إلى أن استشعر التعب، بدأت صحته تتهالك سريعًا، ربما لم يعتد على هذا العمل الشاق، قرر

أن يسوى معاشه مبكرًا، ويترك العمل فى هذه المصلحة الحكومية..

كان الأمر بالنسبة لى صادمًا.

ــ إزاى يا أخويا عايز تسيب الوظيفة.

ــ زى الناس، هو أنا باخد منها إيه يعنى.

ــ المعاش، هتاخد منها المعاش يا أبو سميرة،

ــ عقبال ما أوصل لسن المعاش البنت تكون كبرت، ومش هنعرف نشترى لها حتى حلتين وطقم كوبايات، أنا هاسوى معاشى، والفلوس اللى هاخدها مكافأة نهاية الخدمة، هادفعها فى قسط العربية، أهى تخف من اللى علينا، والوقت اللى بضيعه فى الشغل فى المصلحة، أستفيد به فى الشغل على العربية، علشان نعرف نوفر قرشين للبنت.

ثم تكمل حكايتها..

لم يكن أمامى حل غير الموافقة على ما يرغب فيه، هو رب المنزل، ويدرى كيف يستطيع إدارته بشكل مادى سليم، أو ربما، هو من يعلم من أين يؤكل الكتف كما يقال.

أوقفها عن الحكى صوت رنين هاتفى، إنه اتصال من الضابط المسئول عن «عـارف» يخبرنى بأنه فى حالة هياج عصبى شديد ويطلب مناقشتى فى شيء مهم للغاية..

المدهش هو أننى حينما سمعت اسم «عارف» أصابتنى حالة من

الضيق والملل، لا أدرى لماذا أصابنى هذا الشعور، من الطبيعى أن يطلبنى، فأنا الطبيبة المسئولة عن حالته، وهو يعلم تمامًا، أن مصيره مرتبط بذلك التقرير الذى سوف أكتبه وأقدمه لجهات التحقيق.

فى الحقيقة، أود أن أصبح القاضى الذى سوف يصدر حكمه فى قضية هذا الرجل.. لن أتردد فى أن أصدر عليه حكم الإعدام، ولن أقبل نقضًا أو استئنافًا.

لكن، هذا مجرد شعور شخصى، ويجب أن يتنحى جانبًا وقت العمل، فللعمل قواعد لا يجب أن نتغاضى عنها، مهما كانت الأحداث.

اعتذرت من «فايزة» وأخبرتها أننى يجب أن أرحل الآن، لكن يجب أولًا أن ألقى نظرة على «سميرة» وأتابع مع طاقم التمريض الخاص بعيادتى، البرنامج العلاجى للطفلة.

بالفعل، قمت بمراجعة كل الترتيبات اللازمة، ثم غادرت، حيث أتوجه إلى المستشفى الخاص الذى يحتجز فيه «عارف» لعلى أعرف ما الدافع الحقيقى وراء ارتكابه هذه الجريمة البشعة فى حق هذه الطفلة الهزيلة.

مرهق جدًا أن تبحث عن حقائق، يتعمد أصحابها إخفاءها عن الجميع.

الفصل السادس:

لا تنظر أسفل قدمك، حتى لا تتعثر بسهولة، انظر دائمًا إلى مرمى بصرك، حتى تستطيع أن ترى كل ما هو أمامك بوضوح.

أسعى دائمًا للوصول إلى الحقيقة، لا أهتم بأى شيء حولى، إلا الوصول لما أبغى الوصول إليه، فقط لا غير..

لكل شيء ضريبة، وضريبة الوصول للحقيقة باهظة جدًا.

أنا الآن، أقوم بدفع هذه الضريبة، منذ أن استيقظت هذا الصباح، وأنا أقوم بجولات، ورحلات، بين هنا وهناك، لم أبذل مجهودًا منذ فترة طويلة هذا اليوم، بين عيادتى، والمستشفى الخاص، بين تركيزى مع «فايزة» فى دوافعها، وحكايتها، والأحداث التى قادت «سميرة» إلى ما هى عليه الآن.

والتركيز مع «عارف» وأفكاره، وأهدافه، ودوافعه لارتكاب هذه الجريمة، التى نحن بصددها الآن، وعالمه الذى يتحدث عنه بلا مبالاة، وعدم شعوره بالجرم الذى ارتكبه، وكل هذه الأحداث

المثيرة والغامضة فى حياة هذا الرجل «عارف»، والتى يجب أن أبحث بداخلها وأتوغل حتى أصل إلى حقيقة الأمور.

أعود مرة أخرى للمستشفى الخاص، أبحث عما أريد، وأيضًا، أترك «عارف» يستخدم دهاءه، كما يريد، لم أغفر له أسلوبه المتدنى معى فى المرة السابقة، ولن أتركه بدون عقاب على ذلك، لكن لكل حدث حديث، والجزاء من جنس العمل.

ويبقى السؤال المهم، لماذا طلب «عارف» أن يلتقى بى مجددًا فى نفس اليوم الذى عرض علىَّ فيه المقابل المادى؟! وهو يعلم تمامًا، أن هذه الواقعة لن تمر بدون عقاب.

ربما أراد أن يقوم بإصلاح ما يمكن إصلاحه، ربما يريد من هذا التصرف أن يثبت لى عدم اتزانه الفكرى.

وصلت للمستشفى الخاص، مازلت لم أتناول وجبة الغداء بعد، لكن لا يهم، كل ما يهم أنى أتوصل لما أريد، وأقوم بعملى على أكمل وجه، وأنا أستمتع للغاية بممارسة عملى.

التقانى الضابط المسئول عن «عارف» أمام المستشفى الخاص، وتوجهنا إلى الداخل حيث الغرفة الخاصة المحتجز بها «عارف» أثناء توجهنا إلى الغرفة دار بيننا حديث مقتضب عن هذا الرجل، حينما سألنى الضابط عن كيفية تفكيره.

ــ هو الراجل ده بيفكر إزاى يا دكتورة.

ـ يعنى إيه بيفكر إزاى؟!

ـ يعنى تصرفاته العجيبة دى معناها إيه، يعنى حضرتك النهاردة تيجى هنا مرتين ليه؟.. هو مجنون.

ـ ممكن، وممكن يبقى عايزنا نفكر بالأسلوب اللى حضرتك فكرت بيه ده.. فى كل الأحوال هنشوف هو هايوصلنا لإيه؟!

ـ اتفضلى.

وصلنا إلى غرفة احتجازه، وما إن فتح الباب إلا ونظر لنا فى حالة من الكبرياء والشموخ، لم أبدِ أى ردة فعل سوى تلك الابتسامة العريضة التى رسمت على شفتي.

بدأت أفكر فيما يفكر فيه، وأكون وجهة نظر، ولم يمر الكثير من الوقت إلا وأثبت لى دقة تفكيرى..

من الضرورى جدًّا، أن تدخل بداخل أعماق أفكار خصمك، حتى تتمكن من تفصيل أفكاره، وتتمكن من ترجمة إشارات المخ إلى العين، وتستخرج من بين تلك الكلمات التى سوف تنطق، قبل أن تنطق.

ما إن رأى «عارف» الضابط المسئول، إلا وطالبه بأن يتركه مع الطبيبة بمفرده، كان ذلك الطلب متوقعًا، نظر لى الضابط المسئول، هززت له رأسى، كى أعبر له عن موافقتى، لهذا الطلب المتوقع، وبالفعل غادر الضابط الغرفة، وتوجهت نحو الكرسى وجلست،

كانت نظرته لى تعنى الكثير، وتحمل بين طياتها أفكارًا، أعلم ملامحها، لكن على كلٍّ، كل شيء يحدث بداخل هذه الغرفة، تم الترتيب له، وأى رد فعل سوف يحدث سيكون محسوبًا تمامًا، لن نترك شيئًا للصدفة نهائيًا، ودون أن نضيع الوقت، بدأت أسأله مباشرة.

ــ طلبت تقابلنى؟!.. خير عندك جديد؟!

ــ وحشتينى.

ــ نعم؟!!!!

ــ أيوه.. أنا رجل أحب الجمال، وأنت جميلة، وواحشنى أشوف الجمال اللى فى ملامحك، علشان كدة بقولك وحشتينى.

ــ تصدق إن أنت راجل تافه.

ــ نعم!!

ــ أيوه، أنت رجل تافه، وأهبل كمان، وبتستهبل، وكل الكلام ده هاكتبه فى التقرير، علشان ألف حبل المشنقة حوالين رقبتك.

ــ كل ده علشان قولتلك وحشتينى.

فى تلك اللحظات بدأت أكشر عن أنيابى أمامه، وأغير مجرى الحديث، إلى شيء مهم، أو على الأقل، شيء يفيد.

ــ اسمع، أنا جيت هنا بطلب من الجهات المسئولة، وممكن فى لحظة أعتذر عن القضية دى، وعلشان تبقى فاهم، أى دكتور غيرى

هاييجي ويمسك قضيتك، هيكتب تقريره فيك بعد 72 ساعة، وهو ضميره مرتاح، وأنت هتاخد إعدام يعنى هتاخد إعدام،

ـ ليه ده كله يعنى؟!

ـ علشان البنت واللى انت عملته فيها.

ـ طيب ما أنا دفعت لأمها كل اللى طلبته، وهاطلب شهادة الرجال اللى جابوها لى.

ـ ومين همَّه الرجالة دول؟!

ـ رجالتى هنا.

ـ رجالتك.. هو انت ليك رجاله هنا.

ـ ما أنا قولتلك قبل كده، إنتِ بتنسى.

فى الحقيقة، أبلغنى «عارف» بهذه المعلومة من قبل، لكن لم أكن أثق فى سلامتها، أما الآن يجب أن أتأكد منها، بشرط واحد فقط، أن أترك «عارف» يجزم لى هذه المعلومة، لذلك يجب أن أبدى عدم الاهتمام وعدم التصديق لهذه المعلومة.

ـ أنت بتقول أى كلام على فكرة.

ـ وأقول أى كلام ليه؟!

ـ مش مهم، المهم أنا زهقت من أسلوبك وهاسيب القضية دى، وهاتابع التفاصيل من الجرائد بقى، متقلقش هتاخد إعدام يعنى هتاخد إعدام.

ـ هاطلب السفارة، واترحل.

ـ آه، نسيت أقولك، الجهات المسئولة بلَّغت السفارة، وانت عارف بقى قضايا الشرف دى، وأكيد بلدك مش هتقبل تتدخل بشكل مباشر وهما عارفين كويس إنك شخص سيئ السمعة، ونسيت أقولك إن الإعلام فى المواضيع دى مبيسكتش.

كانت الجملة قوية، والتهديد المباشر كان مهمًا فى هذا التوقيت، حتى أستطيع أن أحصل منه على رد فعل مباشر.

ـ إنت عايزة إيه؟!

ـ الحقيقة.

ـ الحقيقة هى اللى انتِ سمعتيها.. ومش البنت دى بس اللى عملت فيها، لا فى غيرها كتير، زى البنت اللى أمها كانت بتمسح سلم العمارة والبنت كانت بتساعدها، جذبتنى ليها، حركت كل مشاعرى.

ـ مش مصدقاك.

ـ بقولك الحقيقة.

ـ طيب اسمها إيه.

ـ كل الأسماء، والعناوين، والأرقام، والفلوس اللى دفعتها لهم، كل الحاجات دى مع مهدى.

ـ ويطلع مين مهدى؟!

ـ المحامى تبعى هنا، هو اللى يعرف كل التفاصيل.

تنظر فى ساعة يدها ثم تنهض.

ـ لازم أمشى بقى، ميعاد نومى عدى.. أنا أجازة 72 ساعة، ياريت متطلبش من حد إنك تقابلنى خلال الفترة دى.. آه.. لو عندك محام بجد يبقى خليه يجيلى العيادة، عنوانى فى الرسيبشن.

ثم تركته وغادرت الغرفة، وأنا أراهن على ذكائى معه، إنه حقًّا فى كامل قواه العقلية، سوف يستغل فرصة العرض الذى عرضته عليه، وسيرسل لى المحامى الخاص به، وإن حدث ذلك فهذا يعنى أننا أمام جولة جديدة مع هذا المعتوه الذى يحمل فى خزينة أسراره الكثير والكثير من الأمور التى يجب أن نتعرف عليها.

غادرت المستشفى الخاص، وأنا مرهقة، إنه يوم شاق للغاية، كان به الكثير والكثير من الأحداث الدرامية المؤثرة.

هناك أمور كثيرة، يجب تحليلها، وتلخيصها، واستخراج نتائجها بشكل دقيق، وقبل كل شىء، يجب أن أتناول شيئًا يسد جوعى، فهذا الشعور يجتاحنى بقوة الآن..

ما إن وصلت إلى منزلى، توجهت فورًا إلى المطبخ، وقمت بتحضير وجبة طعام تعوضنى كل الذى فقدته من جهد، وطاقة، أهدرت.

وبدأت فى تناول الطعام وأنا أفكر فى أحداث اليوم، ذلك

المعتوه الذى يعترف أنه قام بارتكاب جريمته، وتلك الطفلة التى حاولت الانتحار، وتدخلى اللاإرادى فى حالتها، وقرارى بنقلها لعيادتى الخاصة، وجلستى معها، ثم جلستى مع فايزة، وصندوق الأسرار الذى فتحته لى، وراحت تخبرنى بما تحمله داخل صدرها من أوجاع، وطلب هذا المعتوه الذى يدعى «عارف» كى يقابلنى مجددًا، والأحداث التى دارت بيننا أثناء اللقاء.

كان يومًا مفعمًا بالأحداث التى تتطلب التركيز الشديد، والتحليل المنطقى، لكن النعاس يرفض أن أكمل عملى، وكأنه يقول لى:

«إن لبدنك عليك حقًّا»..

منتهى المنطقية، ويجب أن أنصاع إلى أمر هذا الصوت الذى يهمس بداخلى.

ــ أنا بقول ننام والصبح يحلها ربنا، الدنيا مش هتطير

بالفعل توجهت إلى حجرة نومى، ودون أن أدرى ألقيت بجسدى على الفراش وذهبت فى سُبات عميق.

لم أدرِ بأى شيء من حولى إلا فى صباح اليوم التالى، أيقظنى صوت رنين هاتفى الجوال، كان صديقى الصحفى، فى الحقيقة لم أعتد الرد على الهاتف قبل أن أتناول قهوتى، عادة سيئة، لكنها عادة من إحدى عاداتى التى اعتدت عليها.

قمت بإحضار قهوتى، بعد أن وقفت ما يقرب من خمس عشرة دقيقة أسفل صنبور الماء الساخن بالحمام..

ثم أحضرت هاتفى وأجريت اتصالًا بصديقى الصحفى «جاسر»:

ــ آلو.. صباح الخير يا أستاذ جاسر.

ــ صباح النور يا دكتورة، كلمت حضرتك أستأذنك آجى أطمّن على حالة «سميرة» ده لو مفيش عند حضرتك مانع.

ــ لا طبعًا، أهلًا وسهلًا بيك، اتفضل.

ــ شكرًا لذوق حضرتك يا دكتورة.

ــ العفو.

أنهيت المكالمة، وأنا أعقد مقارنة بين «جاسر» ذلك الرجل الذى يتمنى أن يصبح لديه طفلة، و«عارف» ذلك الرجل الذى يتلذذ بأن يغتصب طفلة.

فارق كبير بين هذا وذاك، من السهل أن تنجب، لكن من الصعب أن تتحمل مسئولية الرضيع الذى أنجبته، هذا ما وجدته فى أمر فايزة وقصتها، التى مازلت لا أعرف عنها إلا القليل.

توجهت إلى غرفتى واستبدلت ملابسى، ثم غادرت منزلى، متوجهة نحو العيادة، كى أتابع حالة «سميرة» وكى أستقبل جاسر أيضًا.

وما إن وصلت حتى قابلت سيدة جديدة، لا أعرفها، عرفتنى بنفسها بعد أن استوقفتنى وأنا فى طريقى إلى حجرة مكتبى.

ــ صباح الخير يا دكتورة، مش حضرتك برضه الدكتورة نسمة.

ــ صباح النور، أيوه، أنا الدكتورة نسمة، مين حضرتك.

ــ أنا همت، أخت فايزة، خالة سميرة.

ــ آه، أهلًا وسهلًا.

ــ أنا قاعدة من بدرى هنا علشان أقابلك.

ــ ليه خير فى حاجة؟.

ــ لا كنت عايزة أشكرك على اللى أنتِ عملتيه مع بنت أختى.

ــ العفو، ده واجبى، بعد إذنك.

أنهيت الحديث وتوجهت نحو غرفة مكتبى، حتى أرتب بعض الأمور اليومية، والعملية، ثم أتوجه بعد ذلك إلى حجرة «سميرة» كى أطمئن على حالتها الصحية اليوم.

كنت قد أوشكت على الانتهاء من ترتيب أغراضى وأوراقى، وأوقفنى عن ذلك صوت طرق الباب.

ــ ادخل.

إنها السكرتيرة تبلغنى بحضور الأستاذ جاسر.

ــ فى واحد برة صحفى اسمه الأستاذ جاسر.

ــ آه، خليه يتفضل.

ــ اتفضل.

قمت كى أرحب به، وتصافحنا، وأشرت له بالجلوس.

ــ ها تشرب إيه.

ــ قهوة زيادة من فضلك.

طلبت من السكرتيرة أن تحضر لنا القهوة.

ثم استأذنته لمدة دقيقة واحدة أكمل فيها ترتيب الأوراق، وقبل ذلك بالرحب والسعة، أنهيت ما أقوم به، ثم بدأنا نتبادل الحديث بشكل عام إلى أن وصلنا إلى «عارف» فى تلك اللحظة أخبرته.

ــ شوف لو عايزنا نتكلم بشكل شخصى فى النقطة دى أنا موافقة، إنما لو الكلام أخد طابع المهنية، اعذرنى.

ــ لا طبعًا يا دكتورة، أوعدك إن مفيش حرف من اللى هايدور بينا هياخد شكل مهنى نهائيًا.

ــ تمام.

وبدأت أتحدث معه وكأنى أتحدث مع نفسى بصوت عالٍ، فى الحقيقة هى المرة الأولى لى التى أتحدث فيها عن حالة أتولى أمرها مع شخص آخر، لكن وفى الحقيقة أيضًا «عارف» ظاهرة تستحق البحث واستطلاع رأى المحيطين حولك فى أمره.

بدأت أخبره عن بعض التفاصيل التى حصلت عليها من خلال الجلسات التى جمعتنى به، ذكرت له أهم ما يشغل خاطرى، حينما

أخبرنى «عارف» أنها ليست المرة الأولى له كونه يعاشر طفلة من الخلف..

كما أخبرته بأن هذه الواقعة تمت بمباركة الأم حسبما ذكر لى «عارف»، وأخبرته أيضًا بهذا المحامى الذى يقوم بتسهيل هذه الجرائم له، وتوفير الضحايا له.

التفاصيل التى ذكرتها لصديقى «جاسر» كانت تنزل على مسامعه كالصاعقة واحدة تلو الأخرى، يبدو من ملامحه أنه لم يكن يتوقع هذا الكم من الأحداث المؤسفة التى سمعها.

لكن الحقيقة دائمًا تكون مؤلمة، وغير متوقعة أيضًا.

ربما ما سمعه أثار بداخله الحمية وكان رده عفويًا.

ــ داحنا قدام تشكيل إجرامى يا دكتورة.

ــ حاجة زى كدة.

ــ والعمل.

هنا أخذت نفسًا عميقًا، ما أفكر فيه بعيد تمامًا عن مجال عملى، وليس من شأنى كطبيبة، أما على المستوى الإنسانى، فأنا لا أقبل بكل هذه الأحداث الفجة والبغيضة، ويجب أن يكون لى دور فى الوقوف أمام هذه الظاهرة، حتى لا نسمح بتكرارها مرة أخرى.

لذلك بدأت أفكر فيما هو قادم، لكن أفكارى مشوشة الآن وأخبرت جاسر بذلك حتى يكون عونًا لى.

ــ شوف، أنا هتكلم معاك بصراحة، أنا كدكتورة مليش فى كل اللى بيحصل ده، كل اللى يهمنى حالة المريضة وأنى أساعدها على الشفاء، أما على المستوى الإنسانى، أنا رافضة اللى بيحصل ده زيك بالضبط، علشان كده المعلومات اللى قولتلك عليها، مقولتهاش للضابط المسئول عن القضية، لأنى لو عملت كده من غير ما أتأكد يبقى أنا بلف حبل المشنقة حوالين رقبة عارف، ولو سبنا الموضوع من غير ما نبحث عن الحقيقة، هنبقى مقصرين فى حق الأطفال دول، الموضوع صعب، ومحتاج قرار حكيم منا، علشان منظلمش حد.

ــ شوفى يا دكتورة، أنا مش عارف حضرتك بتفكرى فى إيه بالضبط، لكن كل اللى أقدر أقولهولك إنى معاكى فى أى قرار هاتخديه فى سبيل رد حقوق الأطفال دى.

حماس جاسر، زاد من إصرارى فى أن أمضى قدمًا نحو ما أفكر فيه، وأخطط له.

لكن الآن علينا أن نتوجه إلى «سميرة» كى نطمئن على حالتها الصحية ونعطيها وعدًا قاطعًا بأن حقها لن يضيع.

الفصل السابع:

من منا يختار نوع مرضه، المرض من وجهة نظرى مثله مثل الرزق تمامًا، دائمًا ما يكون على قدر سعيك ترزق، وكذلك على مدى تقصيرك تُبتلى، نعم، المرض هو ابتلاء من الله ـ عز وجل ـ.

لكن هل من المنطقى أن نستسلم إلى هذا الابتلاء، لا أظن ذلك، فى قصص الأنبياء شاهدنا جميعًا سيدنا أيوب، حينما ابتلى بالمرض مائة عام، وظل على مدار المائة عام يدعو ربه قائلًا: «ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين» حتى استجاب له رب العزة جل شأنه لذلك أرى، إن أى مرض عضوى له علاقة مباشرة بالنفسى ومن ثم الروحى، إذًا علينا جميعًا أن نتخذ من هذه المنطقة نقطة ارتكاز وانطلاق لنا، ودافعًا أساسيًا فى سُبل العلاج المختلفة.

لذا تعلمنا ونحن طلاب فى كليات الطب المختلفة، أن الصحة النفسية للمريض هى أولى خطوات العلاج مما لحق به من ضرر جسدى أو عضوى.

وربما تكون هذه هى طريقتى فى العلاج، التى استخدمها دائمًا مع جميع الحالات التى قابلتها فى حياتى.

«سميرة» لم تكن مختلفة كثيرًا عن غيرها، لكن صغر سنها وشدة الضرر الذى لحق بها فى هذه المرحلة العمرية، جعل منى شخصية لينة بعض الشيء فى التعامل معها، ربما على عكس العادة، أصبحت كثيرة التعاطف، الشعور بالألم، الحب الممتزج بالتحدى.

نعم، استشعرت لبعض اللحظات أنها ابنتى التى لم أنجبها، أصبحت أتعامل معها بحساسية شديدة للغاية.

أصبحت أهتم بجميع التفاصيل الصغيرة التى تساعدها فى تخطى عقبة ما لحق بها.

أتذكر أنها المرة الأولى فى حياتى، أن أقوم بمعاونة مريض للذهاب إلى الحمام، دون أن أطلب من إحدى الممرضات أن تقوم بذلك، أو كما جرت العادة، أن يقوم أحد المرافقين للمريض من أهله القيام بذلك.

للحظة ظننت بأنى المرافق الفعلى والحقيقى لتلك الطفلة البريئة، أتحمل كل الأعباء والمسئولية نحوها.. دون أن أعلم السبب الحقيقى، والدافع الذى يقودنى لذلك.. ربما العاطفة التى بداخلى، ربما كونى إنسانة أرفض أن يسود الظلم والظلام، ربما لكونى أكره أن يستغل القوى ضعف الضعيف، ربما لكونى أرفض فكرة الطبقية، التى

أصبحت تسود، وتتحكم فى جميع تصرفات البشر.

فى حقيقة الأمر، أنا لا أجلس كثيرًا فى مجلسى هذا، وأكتب كل شيء يحدث حولى بأدق التفاصيل، كهذه المرة، التى أسجل فيها واقعة «سميرة» وكما أشرت سابقًا، أنى أجهل الدافع الحقيقى لهذا الموقف الذى أنا عليه الآن، لكنى متحمسة للغاية، خصوصًا بعد أن علمت بأن الجانى، هو شخص متمرس هتك أعراض الضعفاء، أمثال «سميرة» صاحبة الشرارة الأولى بداخلى.

توقفت عن التدوين، والتفكير أعلى صفحاتى، فى الحقيقة شعورى بالنوم أجبرنى على ذلك، الحاجة لراحة الجسد والذهن، دومًا ما توقف العقل عن التفكير وتغير ما بداخلك من إرادة حقيقة للسعى نحو الحقيقة، وخصوصًا حينما تتخذ قرارًا خارج إطار عملك، فقط دافعك الشخصى وشعورك برفض الظلم والاضطهاد، هو المحرك الرئيسى لما يدور بذهنك الآن.

وقبل أن يغلبنى النعاس، وجب علىَّ أن أدون شيئًا مهمًّا للغاية؟!!!

«فايزة» أم سميرة بالإضافة إلى «همت» خالتها.

ربما أجد عندهما ضالتى.

فى صباح اليوم التالى، استيقظت فى موعدى كالعادة، تناولت قهوتى، ووجبة الإفطار، ثم بدأت أرتب ليومى العملى، سوف تحصل العيادة اليوم على نصيب الأسد من الوقت، لم أتوجه إلى أى

مكانٍ آخر، إذًا ، وجب علىَّ أن أستعد لما أنا قادمة عليه.

ارتديت ملابسى، وقمت بتحضير حقيبة عملى وأوراقى، وتوجَّهت نحو العيادة، فى الطريق، وأثناء استقلالى للسيارة، كنت أشرد بعض الشىء فى أشياء متعلقة بتلك القضية، ربما يكون بعض لحظات الشرود يحمل فى طياته ملامح كوميدية تجعلنى أضحك بمفردى، مما يوحى لمن يشاهدنى بأنى أعانى من الجنون أو ما شابه ذلك، أدركت هذا أثناء توقفى فى إشارة مرور، حينما شرد ذهنى بتلك اللحظة التى أكتشف فيها الحقيقة وأقوم بمواجهة «عارف» بتلك الجرائم التى ارتكبها أمام القاضى بقاعة المحكمة، فى تلك اللحظة كست وجهى ابتسامة عريضة، أزالها سريعًا صوت عسكرى المرور الواقف فى الإشارة قائلًا:

ــ ما تخشى يا مدام ولا انتِ ناوية تنامى هنا.. ناس عجيبة والله.. وفالحين تتصلوا بالراديو وتقولوا الطرق واقفة وزحمة، وانتوا أصلًا اللى معطلين الطريق.

لم أستطع أن أتفوه بكلمة، فى الحقيقة لديه كل الحق فيما يقول، المضحك فى الأمر أننى حينما قررت أن أتحرك بالسيارة كان الزمن المتبقى لى فى العبور قد انتهى فوجدته يحدثنى مرة أخرى.

ــ رايحة فين حضرتك، انتِ عايزة تكسرى الإشارة وتجبيلى مصيبة؟، يا ست الله لا يسيئك.

ضحكت وأنا أهز له رأسى بالطاعة وحسب، بينما هو انتهى من لفت انتباهى للمرة الثانية، وتركنى وهو يضرب بيده على الأخرى وكأنه بالفعل يتعامل مع شخص مجنون.

انتهى هذا الفصل الكوميدى، والدرس المستفاد منه، ألا تشغل رأسك بشيء أثناء القيادة، إلا القيادة، وإلا سوف تستمع إلى أصوت أبواق السيارات وهى تمدح فيك بكل الصفات غير المرغوب فيها.

بداخل العيادة، كانت «فايزة» ترافق «سميرة» فى حجرتها.. بعد أن تناولت قهوتى فى مكتبى توجهت إلى غرفة «سميرة» لكى أطمئن على حالتها، يبدو أنها بدأت فى الاستقرار بعض الشيء،

وضح ذلك من خلال الحديث القصير الذى دار بيننا.

ــ صباح الخير.

أجابتنى «فايزة»:

ــ صباح النور يا دكتورة.

ــ عاملة إيه النهاردة يا سميرة.

للمرة الأولى التى ترد فيها على حديثى إليها دون أن أشعر بخوفها فى نبرة صوتها.

ــ الحمد لله أحسن.

فى الحقيقة كنت فى غاية السعادة وأنا أسمع تلك الكلمات تخرج من فمها وتعاملت معها بكل طلاقة.

ـــ لا دانتى النهاردة زى الفل.

تدخل «فايزة» لترد نيابة عنها.

ـــ البركة فيكى يا دكتورة، ربنا يخلى ليك ولادك.

نظرت لها وأنا مبتسمة فى رضاء شديد.

ـــ فى الحقيقة أنا معنديش أولاد.

ـــ ربنا يعوضك ويرزقك بالخلفة انتِ وجوزك يارب.

ـــ ولا متجوزة.

ـــ ربنا يسعدك يا دكتورة.

هنا تدخل «سميرة» بسؤال لم يكن متوقعًا بالمرة.

ـــ هو انتِ بتكرهى الرجالة يا دكتورة علشان كدة متجوزتيش؟!

فى الحقيقة سؤال يتطلب الكثير من الحكمة للرد عليه، لأنه يحمل بين جوانبه الكثير والكثير، من الأحداث المترتبة على طرحه، من طفلة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها.

تبسمت فى وجهها، وأنا أجلس بجوارها على طرف الفراش، وبدأت أتحدث لها بحب وسعة صدر.

ـــ لا يا سميرة.. أنا متجوزتش علشان بكره الرجالة زى ما انتِ بتقولى، ومينفعش أكرههم، ومينفعش متجوزش أصلًا، عارفة ليه، لأن أى ست فى الدنيا، مينفعش تعيش من غير راجل فى حياتها، لأن الست أصلًا حتة من الراجل، ربنا خلق من ضلع سيدنا آدم أبى

البشر ستنا حواء، علشان تكون له عونًا، وسندًا، وعلشان يكون لها أمانًا، ويحتويها وتحتويه بالحب.. ربنا له حكمة فى كل حاجة بتحصل لنا.. وأنا متجوزتش لأن آدم اللى ربنا خلقه علشانى، لسة مقبلتوش، أنا بدور عليه، وهو كمان بيدور عليَّ.

هنا تدخلت «فايزة»:

ــ ربنا يجمعك به على خير يا دكتورة.

نظرت لها مبتسمة، وأنا أنهض من جوار «سميرة»:

ــ شكرًا.. تعالى بقى عايزاكى فى كلمتين.

ــ تحت أمرك يا دكتورة.

توجهنا إلى خارج الغرفة، فأوقفتنى «سميرة» بسؤالها.

ــ هو أنا كده ينفع أحب وأتجوز زى الناس يا دكتورة.

ــ أكيد.

ــ إزاى.. ومين يرضى يتجوز واحدة زيى؟! بعد كل اللى حصل ده؟!

ــ هاقولك لما أخلص كلام مع مامتك.

غادرت الغرفة على عجل، لا أود أن أخوض فى الحديث مع «سميرة» أكثر من ذلك.. لا يصح أن أتحاور معها فيما هو قادم الآن.. يجب أن أتعامل مع حالتها النفسية التى تم تدميرها، بعناية فائقة، ترميم جروح الروح يأخذ أوقاتًا مضاعفة من ترميم جروح الجسد.

دخلت غرفة مكتبى، وخلفى «فايزة»، طلبت من عاملة البوفيه أن تحضر لى قهوتى، وتحضر مشروبًا إلى «فايزة» وأمرتها بألا يزعجنا أحد نهائيًا.

ملامح «فايزة» وأنا أجلس على كرسى مكتبى وهى أمامى، تدل على أن هناك شيئًا ما تخشى أن أسألها عنه.. أنا الآن أود وبشدة، أن أعرف ذلك الشيء الذى تخفيه عنى، وعلى الفور، بدأت بالسؤال.

ــ عايزة أعرف كل حاجة يا فايزة.

هنا نظرت لى «فايزة» وعيناها بها كسرة وحسرة شديدة، وأخذت نفسًا عميقًا وهى تبتسم ابتسامة ممزوجة بوجع كبير.. ثم قالت.

ــ عندك وقت تسمعى يا دكتورة.

ــ معنديش حاجة غير إنى أسمعك النهاردة.

هزت رأسها مستسلمة للأمر الواقع، وبدأت فى الحديث.

ــ البداية كانت من «أربعتاشر» سنة يا دكتورة، كنت بنت عندها اثنان وعشرون عامًا فى الوقت ده.. كنت شغالة فى كوافير حريمى أنا وأختى الصغيرة «همت» اللى حضرتك شوفتيها.. أى حاجة علشان أساعد أمى فى مصاريف البيت وزى أى بنت بتشتغل علشان تساعد نفسها فى جهازها، أصل أبويا مات بدرى وسابنى أنا وأمى وأخواتى معناش اللى يأكلنا عيش حاف بعد ما بندفع الإيجار.. المهم.. فى يوم جالى نصيبى زى ما قلت لحضرتك قبل كده، اتجوزنا، وأى حاجة

جديدة فى أولها، بتكون حلوة أوى يا دكتورة، ارتحت كام شهر فى أول الجواز، بصراحة، دلع وراحة نسونى كل أيام التعب والشقى اللى شوفتهم فى حياتى، المهم، حملت فى «سميرة» بعد ثلاث سنوات من الجواز والهم والجرى ع المستشفيات والدكاترة، كنا أسعد اتنين فى الدنيا لما عرفنا الخبر، بصراحة، كان عايز يشيلنى من على الأرض شيل فى الوقت ده، وكل يوم بيعدى عليَّ وأنا حامل، يوم عيد ميلاد سميرة التالت، كان يوم وفاة أمى، تعرفى يا دكتورة، الدنيا دى عمرها ما بتدى محتاج، أنا كل اللى كنت عايزاه من الدنيا، أنها تدوم على ما هى عليه، بس النصيب، يلا، الحمد لله.

أوقف هذا البركان الذى انفجر من بين ضلوع «فايزة» صوت رنين هاتفى.. لكن اشتياقى لمعرفة ما هو قادم جعلنى أرفض استقبال المكالمة، وطلبت منها أن تستمر فى الحكى.

ــ كملى يا فايزة.

ــ طب ما تردى يا دكتورة.

ــ لا مش مهم، كملى انتِ.

ــ المهم يا دكتورة، كل يوم سميرة بتكبر فيه، الخوف عليها من بكرة كان بيكبر معاها جوانا، المصاريف بتزيد، واللى جاى مش مكفى اللى رايح، ومع دخول «سميرة» المدرسة، بدأت الحياة تختلف، الحياة بينى وبين جوزى، طعمها بدأ يتغير، والحلاوة بدأت

تقل، والمصاريف، والهم، ووجع القلب، بدأ يزيد،

وفى ليلة، قعدنا نعاتب بعض على المشاكل اللى ملت حياتنا، وأنا بعاتبه، لقيته زى أنبوبة البوتاجاز اللى انفجرت فى وشى، وبدأ يرد علىَّ ويتكلم، ساعتها قاللى:

اسكتى بقى، انتِ مش حاسة بأى حاجة خالص، ولا عارفة حاجة، كل زمايلى فى المصلحة حياتهم حلوة، ومعندهمش المشاكل اللى عندى، كل واحد فيهم عنده بدل العيل أربعة، وبدل البيت اتنين وتلاتة، وأنا مش عارف أصرف عليكِ انتِ وحتة البنت، عارفة ليه، لأنى بخاف، أيوه بخاف عليكم من الجنيه الحرام اللى كل دقيقة والتانية بيتعرض علىَّ، علشان أخلص مصالح الناس فى الإنجاز على رأى زمايلى، يعنى أظلم نفسى، وأموت ضميرى، علشان الشاى بتاعى، وعلشان ما أحبكهاش، وأنا مالى أنا، هو أنا اللى حطيت القوانين، واللوائح، والنظام، أنا عارف إن الروتين بيقتل، وبيخنق، وبيوقف المراكب السايرة، وبيخلى الناس تكره تعمل أى حاجة فى المصالح الحكومية، أنا نفسى بكره نفسى لما بروح أعمل حاجة فى مصلحة حكومية ـ بس هاعمل إيه ـ النظام، واللوائح، والقوانين، هى اللى بتتحكم فينا، أنا زهقت يا «فايزة» والبنت بتكبر، ومصاريفها بتكتر، وأنا محلتيش غير مرتبى، ومش عارف أعمل إيه، أأكلكم حرام يا «فايزة» ولا الجودة بالموجودة، ولا أعمل إيه؟!!

ساعتها يا دكتورة حسيت إنه شايل فوق كتافه هم جبال، معرفتش أرد أقولـله إيه.

بعدها بأسبوع، قاللى على فكرة الميكروباص اللى أنا قلت لحضرتك عليها، وبدأنا مع بعض رحلة جديدة فى الكفاح زى ما بيقولوا فى المسلسلات، جوزى بقى يصحى الساعة 6 الصبح، يفطر وينزل على شغلانة الحكومة، يخلص ويرجع الساعة 2 الظهر، يأكل لقمة ويريح ساعتين، وعلى الساعة 5 آخر النهار ينزل يشتغل على الميكروباص، يرجع على الساعة واحدة، اتنين بالكتير أوى، بقى عامل زى «التور» اللى مربوط فى الساقية، ويستنى يوم الأجازة علشان ينام ويشبع نوم.....

تلات شهور، ماشى على النظام ده، يخرج أول النهار، يرجع أول تانى يوم، ويدينى إيراد الميكروباص علشان القسط، لحد ما جالى فى يوم فى حالة غريبة خالص، وكأنه واحد تانى غير الراجل اللى أعرفه وبينام فى حضنى من سنين، كنا نايمين ومرة واحدة، لقيته ماسك الشبشب لا مؤاخذة وقاعد يضرب الحيطة ويقوللى صراصير، أدور على الحاجات اللى بيقول عليها دى ملقاش حاجة.

أتارى ولاد الحرام فى الموقف عرفوه سكة البرشام، ومن يومها، وحاله اتلخبط خالص، حتى إيراد الميكروباص بطل يدهولى أشيله علشان القسط، وكل ما أسأله يقولى إنتِ ملكيش دعوة، وفجأة

اختفى، خرج بالميكروباص مرجعش، لا هو ولا الميكروباص، دورت عليه فى كل شبر فى الأرض، تلات شهور والرابع لقيت بتوع القسم بيخبطوا علىَّ، وجرجرونى على القسم، وهناك عرفت إن الراجل اللى إدانا الفلوس، رفع علينا قضية، علشان مدفعناش القسط بقالنا ستة شهور، المصايب لما بتيجى، بتيجى كلها مرة واحدة، بيَّت فى الحجز، وشوفت اللى عمرى ما كنت أتخيل إنى أشوفه يا دكتورة والله، المهم تانى يوم جالى محامى وقاللى أنا ممكن أطلعك من هنا فى ظرف ساعة، كنت هابوس على رجله علشان يطلعنى، وأنا معرفش هايطلعنى إزاى، ولا إيه المقابل.

ومش مهم، المهم إنى أخرج من هنا، وافقت، ثم بدأت فى حالة من الانهيار وعدم الاتزان النفسى، وراحت تعبر عن غضبها وتعنف نفسها، وتلوم على الزمن بشدة..

كانت مصيبة سودة، أنا كنت موافقة أبيع نفسى علشان خاطر بنتى، بس مكنتش عارفة إنهم عايزنى أبيع بنتى علشان نفسى.

ثم دخلت فى نوبة بكاء عارمة أجبرتنى أن أطلب منها التوقف عن الحديث، حتى تستطيع أن تتمالك نفسها، وتخبرنى بكامل التفاصيل، لكن ليس الآن، سوف أفعل ذلك لاحقًا.

تعللت بأننى يجب أن أذهب لقضاء بعض الأعمال المهمة، وسوف نكمل حديثنا فى وقت لاحق.

الفصل الثامن:

لا تحكم على شيء، وأنت لا تعلم جميع التفاصيل.

فهناك دومًا شيء خفى، خلف الأحداث الظاهرة التى نراها بأعيننا، فلا تتعجل الحكم يا صديقى العزيز، وتحلَّى بالصبر، حتى تستطيع أن ترى جميع الأمور، من جميع الزوايا.

و أعلم، أنك لست دومًا على صواب، فهناك احتمالية الوقوع فى الخطأ، لذا عليك تجنب سوء الظن، وافترض الحسن قبل البُغض.

.....

ما أخبرتنى به فايزة، هى معاناة حقيقية، تستحق الدراسة، والتحليل، المدهش أننا مازلنا لم نتطرق إلى تلك الحادثة التى لحقت بـ«سميرة» هى فقط حدثتنى عنها كأنثى، وأعطتنى الخيط الأول فى قضية «سميرة».

هناك تطابق فى الأحـداث، وهذا ما يدفعنى إلى تصديقها، لقد اعترف لى «عارف» فيما سبق بأن هناك من يعاونه فى ارتكاب

جرائمه، ذلك المحامى القذر، يجب أن أعثر عليه، وأتعرف منه على تفاصيل أكثر، فى سلسلة جرائم هذا الـ«عارف».

ما سبق، كان يدور فى مخيلتى وأنا جالسة فى «مقهى» النادى النيلى الذى دائمًا ما أجلس به، يساعدنى جلوسى فى هذا المكان على الاسترخاء، وتصفية ذهنى، وإعادة ترتيب أفكارى،

فى حقيقة الأمر، وجدت نفسى أمام قضية مهمة للغاية، أزمة اجتماعية متشعبة الأطراف، كل طرف فى هذه القضية، له أهدافه الخاصة، وأطماع شخصية، يجب النظر لها بدقة، لأنها تمثل أزمة حقيقية مختلفة عن الأخرى، لكل طرف من أطرافها، وتطرح الكثير من التساؤلات حولها، مثلًا على ذلك.

ما الذى يدفع رجل قانون، أن يقوم بعمل مثل الذى قام به مع فايزة؟!

ما هو الدافع وراء اختفاء زوج فايزة ؟! وأين ذهب؟!

ما هى المتعة التى يشعر بها عارف فى مضاجعة طفلة لم تكمل بلوغها بعد؟!.

لماذا رضخت فايزة أمام كل هذا العبث؟!

ماذا أجهل أيضًا فى هذه القضية؟! وماذا سأجد وأنا أركض خلف أطرافها؟!

ويبقى السؤال الأهم، ماذا سأفعل من أجل معالجة الأمر؟!

هناك صعوبات كثيرة فى هذا المجتمع، دائمًا ثقافته المختلفة مع اختلاف طبقته تُخلف الكثير من العوائق والأزمات خلفها، لذا وجب علينا كمتخصصين، وباحثين، ومعنيين بأمر هذا المجتمع، أن نقف بالمرصاد ضد هذه المشكلات، والظواهر غير الطبيعية، التى تنتج عنها كوارث حياتية، كتلك التى نحن أمامها الآن.

فى الحقيقة، أستطيع أن أتحدث كثيرًا بهذا الشكل الإنشائى، وهذا الأسلوب التعبيرى، الذى يتحدث به كثير من المسئولين، والمتخصصين، والمعنيين بالأمر، أمام كاميرات التلفاز، فى المؤتمرات، أستطيع أن أحصل على أكبر نسبة متابعة، من خلال مواقع التواصل الاجتماعى المختلفة، حينما أكتب تلك الكلمات التحفيزية، على صفحتى وأروج لها بشكل مثالى، لكن، يبقى سؤال.. هل الشعارات هى التى تقضى على تلك المشكلات؟!!

لم يمنعنى شيء من النطق بهذه الكلمات السابقة التى نطقتها فى وجه صديقى الصحفى «جاسر» الذى التقانى بـ«مقهى» النادى النيلى.. لقد حدثته أثناء مغادرتى من العيادة، حينما قررت أن أترك «فايزة» لبعض الوقت كى تحدث لها حالة من الاتزان النفسى، بعدما أخبرتنى بكل ما يجول فى خاطرها، وتخفيه عن الكثير من المحيطين بها.

وجاء الدور على «جاسر» لكى يعطينى رأيه فيما سمعه منى، وبدأ

يتحدث، وكأنه صوت العقل الذى أحتاج إليه فى هذا التوقيت.

ــ فى البداية يجب أن تعلمى يا صديقتى، واسمحى لى أن أناديكى بصديقتى، يجب أن تعلمى أن هذا المجتمع سيظل على هذا النحو، دون تغيير، بكل بساطة، المسئولية تصطدم مع الأهواء الشخصية لدى الغالبية العظمى فى جميع المجتمعات، العاطفة التى يجب أن تتواجد فى أوقات محددة، يتم اغتيالها بدافع الحاجة الشخصية، روح التعاون، والترابط، والتكاتف، التى تبحثين عنها خلف أفكارك وكلماتك، انتقلت إلى رحمة الله، ولا عزاء للأبرياء، الرغبة فى الامتلاك اغتالت البراءة بداخلنا، المسئولية يحكمها القانون، وروح القانون صعدت إلى السماء على يد الروتين، نعم، لقد تم تشويه المجتمعات على مستوى العالم أجمع، بدعوى النظام، والقانون، والروتين، إن القوة الحقيقية فى هذا العالم، هى قوة المال، نعم يا صديقتى العزيزة، قوة المال تسيطر على قوة القانون، تسيطر على جميع الأنظمة، فى كل مجتمعات العالم، ليست هنا وحسب، الأغراض الشخصية دومًا ما تبلى فى الحال مادامت، تملك المقابل، والمال، له مفعول السحر فى هذا الأمر، لقد هجر الرجل بيته وزوجته وابنته، حينما نقص المال ولم يستطع توفيره، بالرغم من جميع المحاولات التى قام بها.

لقد اشترى «عارف» ذلك الرجل الثرى، الطفلة البريئة «سميرة» لكى يشبع رغبته الحيوانية بقوة المال، لم يشترِ الطفلة فقط، بل اشترى

أيضًا الأم «فايزة» وليست «فايزة» فقط، بل اشترى هذا المحامى ـ رجل القانون ـ نعم، لقد اشترى الثرى القانون بماله.

ليس ذلك وحسب، انظرى إلى «فايزة» لقد باعت أغلى ما تملك من أجل توفير المال المطلوب لكى تنقذ نفسها من سجن المال نفسه.

وهذا المحامى، لقد باع ضميره مقابل المـال، ليس ضميره وحسب، بل باع أيضًا نخوته، وشرفه، ورجولته، مقابل المال الذى يحصل عليه من ذلك الثرى «عارف»..

هؤلاء هم الأطراف المعلومة لدينا، وأنا على يقين بأن هناك أطرافًا أخرى، وخلف كلٍ منهم قصة، بطلها الأساسى، الحاجة للمال.

أخذت نفسًا عميقًا، وأنا أرسم على وجهى ابتسامة، كلها حزن، ومرارة، وحسرة، وانكسار، ورحت أنطق له بكلمات ثائرة بداخلى.

ــ ملعونة، تلك السياسات التى جعلت من البشر عبيدًا للحاجة، فلتذهب للجحيم، كل الأفكار التى تقتل بداخلنا الإنسانية، وتزهق روح الرحمة، وتغتال براءتنا.

كيف لنا أن نفكر بهذا المنطق، كيف لنا أن نحول أرواحنا، ومبادئنا، إلى سلعة، فى سوق النخاسة، أين ذهبت ضمائر هؤلاء البشر، أتعلم يا صديقى؟ لو نظروا إلى تلك الحفرة التى هى مستقرهم الأخير، لم يفكروا بهذا الأسلوب، أتعلم؟ لو وضعوا أمام أعينهم ذلك الكفن الذى يستر جسدهم فى تلك الرحلة القصيرة، من المنزل إلى المدفن، لم

يغتالوا البراءة التى تحدثت عنها،

فى الحقيقة، أتعجب من هؤلاء، دائمًا أشرد بخيالى، فى هذا المشهد العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، لحظات الحساب، حينما تقف أمام ربك، فى ذلك اليوم، سوف تشهد عليك، يداك، قدماك، لسانك، جلودك.

ما هو شعورك حينما يسألك الله، عن قول نبى الرحمة «صلى الله عليه وسلم» كان الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

ما هو ردك على ذلك؟! وما هو عملك الذى يثبت ذلك الرد ويدعمه؟!

يا صديقى العزيز، يجب على الجميع أن يعمل لهذا اليوم، فالدنيا لن تبقى لأحد، ولن يأخذ منا شيئًا فى قبره، لكن من يعى هذا، إن الموت هو الحقيقة الوحيدة الملموسة على وجه هذه الأرض، والباقية تدرج تحت بند الاحتمالات.

انتهينا من مرحلة التنفيس، والتعبير عما يدور بداخلنا، من هموم، وأوجاع، واعتراضات على أفعال لا نقبلها بحكم آدميتنا، والآن، علينا العودة إلى قضيتنا الرئيسية.

بدأت بتحليل الأحداث التى روتها لى «فايزة».

وبدأنا نضع خطوطًا حمراء، تحت النقاط المهمة التى جاءت فى رواية «فايزة» وكان أهمها.

أين ذهب زوجها؟!

من هو ذلك المحامى الذى يسهل لـ«عارف» حصوله على الضحايا؟!

لماذا يقوم «عارف» بتصرفات مثل هذه؟! وما هو الدافع الحقيقى؟!

كيف وقعت الجريمة؟! وما هى تفاصيلها؟!

ثم بدأنا فى وضع الخطة التى يجب أن نعمل عليها وكانت كالتالى.

أولًا: يجب أن نحصل على تفاصيل أكثر من «عارف».

ثانيًا: يجب أن نصل إلى هذا المحامى فى أقرب وقت، لكى نحصل على مزيد من التفاصيل التى تدين «عارف».

ثالثًا: إعادة تأهيل «سميرة» لكى تواجه المشكلات التى لحقت بها.

رابعًا: البحث فى التفاصيل الأكثر عمقًا، فى حياة «فايزة» وزوجها، ومن ثمّ نبحث عن هذا الزوج الغامض.

تقاسمنا المهام، وبدأنا العمل دون الانتظار، أخذ صديقى «جاسر» على عاتقه تحمّل أمر هذا المحامى.. كل ما يريده منى فقط، هو اسمه وعنوان مكتبه، وهذا الأمر بالنسبة لى سهل المنال، سوف أحصل عليه غدًا حينما أتوجه إلى المستشفى الخاص الذى يحتجز به «عارف».

كما أخذ أيضًا على عاتقه، أن يبدأ فى البحث عن زوج «فايزة» بعد أن أقوم بإمداده بالمعلومات الكافية عنه، على أن يتم فتح خط ساخن للتواصل فيما بيننا.

انتهى اللقاء، وتوجهت أنا إلى منزلى، وأثناء عودتى، أجريت بعض الاتصالات الهاتفية، التى من خلالها قمت بترتيب البرنامج التأهيلى الذى تحتاجه «سميرة» فى الفترة المقبلة، كما بدأت بالتفكير فى أمر «فايزة» وكيف سأحصل منها على بقية المعلومات التى أحتاج إليها، فى أمرين لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر.

أمر زوجها الذى اختفى فجأة، ودون سابق إنذار، وأمر الحادثة التى تعرضت لها «سميرة» وكيف أرغم «عارف» بمساعدة هذا المحامى ـ الذى أجهله حتى الآن ـ «فايزة » على أن تكون شريكة رغمًا عنها فى جريمة اغتصاب ابنتها الوحيدة «سميرة».

أما أمر «عارف» نفسه فهو يستحق التفكير الدقيق، ولا يجوز أن يكون أمرًا عابرًا ، أفكر به وأنا أقود سيارتى فى الطريق، متوجهة إلى منزلى.

وصلت المنزل، وحصلت على قسط من الراحة، كان أهمها هو أن أقف أسفل صنبور المياه البارد.. ثم تناولت طعامى، وتابعت بعض الأخبار على التلفاز، ومن ثمَ توجَّهت إلى غرفة مكتبى بالمنزل.

داخل هذه الغرفة، أتحول إلى مقاتلة من العيار الثقيل، أخطط

وأهتم بجميع التفاصيل، كالقائد الذى يخطط لتدمير أعتى مواقع العدو، بدأت أسحب أوراقى، وأمسك بقلمى، وأضع النقاط المهمة فى قضية «عارف» وأصنع دوائر حول أهم النقاط التى يجب أن أعمل عليها، وأطرح الأسئلة.

هل يعانى من مرض نفسى؟!

هل تم اغتصابه قهرًا وهو صغير، لذلك يفعل ما يفعله الآن؟!

هل من الممكن أن يعترف فى قرارة نفسه بتلك الجرائم التى ارتكبها؟!

هل المال فقط هو الدافع الرئيسى، لجعل رجل كهذا المحامى يرتكب كل هذه الجرائم المخلَّة بالشرف، والكرامة، والتى، تمحو رجولته من الأساس؟! أو أن هناك دافعًا آخر غير معلن؟!

يجب أن أحصل على إجابات لكل هذه الأسئلة، حتى أستطيع أن أصل إلى ما أريد، وأقوم بحل لغز هذه القضية التعيسة المقززة.

لكن الآن يجب أن أخلد إلى النوم، فغدًا يوم مرهق للغاية، ويجب أن أستعد له على الشكل الأمثل.

تركت غرفة مكتبى، وتوجَّهت إلى غرفة نومى، وعقلى مازال يعمل ويطرح الأسئلة، لكن الإرهاق الذى أصاب جسدى، أجبره على التوقف، والكفُّ عن طرح الأسئلة التى لم أحصل على إجابات لها بمفردى،

ألقيت جسدى الهالك من التعب على الفراش.

.....

بعد ما يقرب من ساعة، سمعت صوتًا، هناك من يريد أن يفتح باب الغرفة، ربما تملَّكنى الخوف للحظات، بل فى حقيقة الأمر، لقد تملَّكنى الرعب، بمجرد أن سمعت خطوات أقدام تخطو نحو باب غرفتى، زاد هذا الرعب فى قرارة نفسى، حينما سمعت باب الغرفة يُفتح، وتعالت أصوات الأقدام الراسخة على الأرض نحوى، كنت أتصبَّب عرقًا بينى وبين نفسى، وأتمنى أن يبتلعنى الفراش بداخله، لكن لم يحدث ذلك، وأنا أخشى المواجهة بشدة،

لحظات، تتصارع فيها دقات القلب مع شهيقى وزفيرى، وكأنهما فى مبارزة سوف تنتهى بتكسير عظام كليهما،

بعد لحظات، جلس هذا الشخص الذى اقتحم غرفتى، على فراشى، ومد يده إلى غطائى، ليكشف عن وجهى، تشبثت فى طرف الغطاء، وكأنه طوق النجاة الوحيد لدى، كنت أقاوم بشدة، أو أظن أننى أقاوم بشدة، لكن فى حقيقة الأمر، أنا كنت مستسلمة تمامًا لما هو آتٍ،

ربما الموت، أو ربما سيكتفى بعملية تشويه بسيطة لوجهى، بالإضافة إلى عدد قليل من الطعنات فى جسدى، وسوف يُبلغنى بعدها رسالة تهديد، أو، أو، فى الحقيقة، كل الاحتمالات التى يمكن

أن تجول فى ذهن البشر، كانت تدور فى ذهنى أثناء هذه اللحظات.

الآن أزاح عن جسدى الغطاء، ويجب أن ألقى مصيرى المحتوم، لن أستطيع الاختباء والهرب أكثر من ذلك.

وهنا، مد صاحب الجسد القوى، الذى أسكن بقلبى رعبًا لم أشعر به من قبل، يده إلى أسفل وجهى، ورفع رأسى قليلًا، حتى أستطيع أن أرى ملامح وجهه، وكأنه تحلَّى فجأة بأخلاق الفارس النبيل، الذى لا يمكن له أن يقتل ضحيته دون أن ينظر له.

تحليت بالشجاعة، وأنا مستسلمة إلى مصيرى ورفعت رأسى، ربما حينما يشاهد الخوف الذى يمتلك كل جوارحى، يتركنى، وإن لم يفعل، تتبقى لى فرصة حفظ ملامحه، حتى أستطيع أن أختصمه يوم القيامة أمام الله.

وما إن رفعت وجهى كى أنظر إليه، إلا ووجد نورًا، أزال الخوف بداخلى وبث فى روحى الطمأنينة، لم أتردد لحظة أن أحتضنه، وأنا أبكى.

إنه أبى، الذى جاء لى فى زيارة سريعة، كى يطمئن على فلذة كبده الوحيدة، نعم لقد أتى كى يخبرنى أننى على صواب، حيث حدثنى وأنا بين أحضانه بكلمات مقتضبة.

ابنتى العزيزة، لا تخشى الموت فى سبيل الحق، لا تتركى أهل الظلم ينشرون فى الأرض ظلمهم، كونى دومًا عونًا للبسطاء والمستضعفين

فى الأرض، كونى رأس السهم الذى يخترق قلب الظالم،

ابنتى العزيزة، جئت إليكِ برسالة.

الموت لن يستثنى أحدًا ، والرب لن يترك أحدًا بدون حساب، الجميع سوف يقف أمام الله، والجميع سوف يُسأل عن كل صغيرة وكبيرة، أنتِ الآن فى الاختبار الأصعب، أنتِ ومن عاونكِ، أرسلكم الله عونًا لطفلة تم سلب حقها، لا ترددى، وسوف يكون الله دومًا معكِ حتى النهاية.

والسلام.

رحل مع صوت منبهى الذى يوقظنى من النوم، كى أستمر فى معركة الحق.

إلى اللقاء يا أبى العزيز.

الفصل التاسع:

إن الأحلام التى تراودنا، دائمًا ما تكون لها فائدة قوية.

رغم اختلاف الحلم، لكن له أهمية شديدة فى مسار حياة كلٍّ منا.

كل ما علينا، هو فقط أن نؤمن بأحلامنا. .

والأهم من ذلك هو أن نسعى وبكل ما نحمل من قوة، خلف أحلامنا كى تصبح هدفًا مشروعًا،

ومن ثمَّ يكون للحلم مفعول السحر فى تحديد مصائرنا.

.....

هكذا بدأ الحلم بداخلى، منذ أن كنت طفلة صغيرة، حتى الأمس، حينما زارنى أبى ـ رحمة الله عليه ـ فى منامى،

كان الهدف من تلك الزيارة، هو الشد من أزرى، وتحفيزى، وبث الحماسة بداخلى، فى السعى نحو الحق، وخلف الحقيقة.

أظن أن الهدف الرئيسى من تلك الزيارة، التى قام بها أبى لى فى المنام، هو أن يبعث لى رسالة طمأنينة، من رب العزة ـ جل جلاله ـ

بأن الخطوات التى أقوم بها من أجل الطفلة «سميرة» هى خطوات يرعاها المولى ـ عز وجل ـ ومحببه له، لأنها بكل بساطة تهدف إلى إعلاء كلمة الحق، وإرثاء مبدأ العدل فى الأرض.

أنا الآن على يقين، أن ما أقوم به هو الواجب الذى خُلقت من أجله، للحفاظ على التوازن البشرى، بين الخير، والشر، بين الأبيض، والأسود، بين الصالح، والطالح.

أفكار كثيرة ومتشابكة، كانت تدور برأسى منذ أن توليت هذه القضية، نعم أنا طبيبة ماهرة، لكنى فى الأصل إنسانة، لديها مشاعر، جوارح، لديها رسالة فى هذه الحياة خُلقت من أجلها، وتسخر لها الأقدار سُبلها حتى تصل إلى نقطة النهاية، التى قدرها لها خالقها.

كل ذلك كان يدور بمخيلتى، وأنا أتناول فنجان قهوتى الصباحى قبل مغادرة منزلى.. ودون تحضير نطق قلبى «يعلم مستقرها ومستودعها» صدق الله العظيم، يا لها من الآيات رغم قلة حروفها، إلا أنها تحمل معانٍ لا حصر لها فى حياتنا، إن أدركنا، لينطق قلبى مرة أخرى «ونعم بالله».

بدأت فى ترتيب جدولى اليومى، ووضع خطة العمل، وما إن انتهيت من استبدال ملابسى، أخذت حقيبتى وتوجهت إلى خارج المنزل، متوجهة نحو المستشفى الخاص الذى يُحتجز بداخلها «عارف».

كل ما يدور فى رأسى، أثناء توجهى نحو المستشفى، شيء واحد فقط، ألا وهو، كيف سأحصل على أكبر قدر من المعلومات التى أحتاج إليها، كى أثبت حق هذه الطفلة الضعيفة «سميرة»

وصلت فى موعدى المحدد للمستشفى، والتقيت الضابط المسئول عنه، وتصافحنا، وقبل أن نتوجَّه نحو الغرفة التى يوجد بها «عارف» طالبنى الضابط بأن نتناول فنجان قهوة فى «كافيتريا» المستشفى، وافقته لعلاقتى الشديدة بالقهوة، فى الحقيقة، هى الشيء الوحيد التى لا أستطيع أن أقاومها، بالرغم من أضرارها حال تناولها الزائد.

بداخل استراحة المستشفى، وأثناء تناولى القهوة مع الضابط، طرح علىَّ سؤالا

ــ تفتكرى يا دكتورة هنقدر نثبت حق البنت الغلبانة دى؟!

نظرت له وأنا أخشى الجواب، ربما يكون بدافع الحذر من ألاعيب رجال البحث الجنائى، وربما بدافع القلق على حق هذه الطفلة التى مازلت لم أقدم لها أى شيء فى استرداد حقها المسلوب، ويعود ذلك لعدم توافر المعلومات الكافية التى أحتاج إليها لفعل ذلك، أدرك الضابط حذرى منه كضابط بحث جنائى، مسئول عن هذه القضية، فتبسَّم الضابط فى وجهى قائلًا:

ــ متخافيش يا دكتورة، سؤالى على المستوى الإنسانى والشخصى، وملهوش أى علاقة بصفتى الوظيفية خالص.

ربما هذه الكلمات بثت فى روحى الطمأنينة بعض الشيء، وبدأت أتعامل مع الأمر من هذا المنطلق.

ــ الموضوع مش سهل يا فندم، والرجل ده لحد الآن بالنسبة لى مش واضح، هو مريض نفسى بجد، ولاَّ متمكن من اللى بيعمله.

ــ ما هو ده اللى محيرنى يا دكتورة، وعلشان كده سألتك؟!

ــ لسه بدرى يا حضرة الضابط، مش عايزين نستعجل الحكم، وعلى كلٍّ، حق البنت دى مش هنسيبه.

ــ ده اللى بتمناه يا دكتورة، واللى بنرجوا إن حضرتك تساعدينا فيه.

ــ ممكن أسألك سؤالًا شخصيًّا شوية؟!

ــ طبعًا يا دكتورة، اتفضلى.

ــ هو انت ليه سألتنى السؤال ده؟!

ابتسم وملامح وجهه بها علامات الرضا الشديد، قائلًا.

ــ يمكن حضرتك مستغربة إن ضابط شرطة هو اللى بيسأل السؤال ده، بس إحنا بشر زى باقى الناس، عندنا أولاد بنخاف عليهم، أكتر ما بنخاف على نفسنا، يعنى قلبنا مش ميت زى ما بيقولوا، بصراحة يا دكتورة، أنا عندى بنت فى سن البنت دى، ومن أول ما عرفت تفاصيل الحادثة وأنا بسأل نفسى، هاعمل إيه لو كانت بنتى أنا هى اللى اتعرضت للموقف ده.

ــ ويا ترى عرفت الإجابة يا حضرة الضابط؟!

ــ الإجابة اللى وصلت ليها متنفعش معاه يا حضرة الضابط.

انتهينا من الحوار سريعًا، مع آخر رشفات القهوة، وقمنا متوجهين نحو غرفة «عارف» وبداخلى حماس شديد للغاية، يدفعنى للبحث عن الحقيقة، ربما أخشى شيئًا واحدًا فقط، أن يتم توجيهى فى تلك القضية دون أن أشعر، وكنت أضع هذا الأمر نُصب عينىّ طوال الوقت، وكنت أفكر دومًا، أثناء توجهى نحو غرفة «عارف» بمراعاة حالة الاتزان النفسى أثناء تواجدى معه فى الجلسة التى أقدم عليها، وكذلك الجلسات القادمة حتى أنتهى من كتابة التقرير الصحى الدقيق لحالته.

بالفعل، دخلت على «عارف» وما إن نظرت نحوه، إلا ورأيت فى ملامح وجه هذا الرجل شيئًا يستحق التوقف أمامه، لقد بدا لى من ملامحه أنه كان ينتظر دخولى عليه، وكأنى طوق النجاة الذى يلقى إلى غريق فى عرض البحر، كمريض على مشارف الموت ينتظر طبيبًا ماهرًا يعيده مرة أخرى للحياة.

مشاعر مختلطة تجسدت بداخلى، عندما رأيت ملامح «عارف» التى رسمت وجسدت كل ما يدور بداخله نحوى، لكن، يجب أن أتعامل مع الأمر بحذر شديد، ربما يريد أن يصدر لى هذا الشعور، حتى يكتسب تعاطفى معه فى قضيته، وهذا شيء لن يحدث نهائيًا،

على كلٍّ، سوف نرى ماذا سيحدث فى اللحظات القليلة المقبلة.

توجهت نحو المقعد المخصص لجلوسى أمام «عارف» وألقيت عليه التحية وأنا أنظر إلى يديه المقيدة بالأصفاد فى الفراش.

ــ صباح الخير.

رد التحية ونبرة صوته تحمل الكثير من المعانى المتداخلة.. ما بين السعادة والكبرياء، والشعور بالانكسار، مع رفع الرأس.

ــ صباح النور، أهلًا يا دكتورة.

ابتسمت فى وجهه، لكى أُرسل له رسالة تعبر عن مدى تفهمى لما يدور بداخله.

ــ واضح إنك النهاردة أحسن.

استقبل الرسالة بوضوح، ورد بدهاء شديد وهو يحافظ على مشاعره المتداخلة.

ــ يعنى، بحاول أتأقلم مع الوضع الجديد اللى أنا فيه، لحد ما أخرج من هنا.

ــ هو انت عايز تخرج من هنا؟!

ــ طبعًا.

ــ إزاى؟!

ــ بمساعدتك ليا يا دكتورة، مش انتِ هنا برضه علشان تساعدينى؟!

ـ لا.. أنا هنا علشان أساعد الحق والعدل.

ـ مش مختلفين.

استشعرت من حديثه، أنه يريد أن يعقد صفقة جديدة غير التى عزم عليها من قبل، وهنا قررت أن أستغل الوضع لصالحى، وأحصل منه على ما أريد.

ـ عايزنى أساعدك؟!

وما إن سمع منى تلك الجملة، إلا وغمرته السعادة، وكست كل ملامح وجهه الفرحة.

ـ أكيد طبعًا، إنتِ الوحيدة اللى تقدرى تعملى كدة.

ـ يبقى لازم تساعد نفسك الأول.

ـ إزاى مش فاهم؟!

ـ تقوللى بصراحة كل التفاصيل، وتفهمنى كل حاجة.

ـ موافق، بس عندك وقت تسمعى؟!

ـ معنديش غيره.

ـ عايز سيجارة.

نظرت له وبداخلى شعور بالارتياح الشديد، لدى شعور أننى على مسافة قريبة من الوصول للحقيقة التى أسعى نحوها، طلبت من الضابط المسئول عن احتجازه أن يسمح له بالتدخين، وبالفعل أشار إلى أحد العساكر المكلفين بحراسته بفك يده من الأصفاد،

وأخرج الضابط علبة سجائره، وأعطاه سيجارة وأشعلها له.

كانت ملامح الضابط تحمل غضبًا شديدًا وهو يفعل ذلك، لكنه لا يملك إلا أن يوفر له ما يشاء بناء على رغبتى، حتى نستطيع الحصول على ما نريد.

أدرك «عارف» أنه يُبلى بلاء حسنًا، فيما هو يطمح فى الوصول إليه، وقرر أن يبدى القليل من المرونة، لكن بحذر!

ــ أنا هاقولك على كل حاجة يا دكتورة، بس لوحدنا.

نظر لى الضابط وهو يكظم غيظه، حاولت تدارك الأمر قبل أن يتطور، وطلبت من الضابط المسئول أن ينصاع لطلب «عارف» ما دام هذا الأمر يصب فى صالح عمل الضابط نفسه.

كظم الضابط غيظه مرة أخرى، ورضخ لرغبتى فى الانفراد بالمريض، مطالبًا أحد العساكر بالتواجد داخل الحجرة، بالقرب من الباب، ودون الاهتمام بما يدور بين المتهم وبينى.

بدأت الأمور تسير كما يريد «عارف» حسب ظنه، ولكنه لا يعلم أنه يسير لحسب ما أرغب أنا فى تحقيقه، وبدأت فى التحدث إليه.

ــ ها، لك طلبات تانية؟!

ــ لا.

ــ طيب اتفضل أنا سامعاك.

هنا، أخذ «عارف» نفسًا عميقًا وتأهب للتحدث، أظنه الآن

سوف يتخلى عن أسلوب التلاعب، والمراوغة، التى كان يستخدمهما فيما سبق، وسوف يكشف بعض الأوراق التى لديه، وهذا كل ما أطمح إليه الآن، حتى أستطيع أن أفكك بعض طلاسم هذه القضية.

تردد بعض الشىء فى البوح بما داخله من أسرار، لكنى بثت فى نفسه بعض الشيء من الطمأنينة، حينما أخبرته أننى فى انتظار سماع ما سوف يخبرنى به، هنا بدأ فى التحدث قائلًا.

ــ عايزه تعرفى إيه بالضبط؟!

ــ الحكاية كلها من البداية لحد دلوقت؟!

اعتدل فى مجلسه وبدأ الحديث.

ــ أنا بعمل كدة من فترة كبيرة جدًا، بحب البنت الصغيرة، بتثير كل غرائزى، بتذهب عقلى منى، على فكرة، أنا يمكن تكون هى دى نقطة ضعفى الوحيدة فى الحياة، المتعة، هى دى اللحظة الوحيدة اللى بحس فيها إنى ملك،

تعرفى، أنا ليا شركات فى بلدى وفى بلاد تانية، كان ممكن أكتفى بالشركات اللى عندى فى بلدى، بس أسست الشركات التانية دى علشان حاجة واحدة بس، النسوان.

أنا بعترف، أنى بحبهم جدًّا، مش مهم عندى أنام وفى حضنى واحدة ست، ما يعنينى حقيقة هو إنى أشوف واحدة ست فى حضن واحدة تانية،

شوفت ده كتير فى الأفلام الجنسية، بس لما تشوفيه فى الحقيقة كدة قدام عينيك، الشعور بيكون مختلف تمامًا..

وأخذ يقص ويفيض فى الوصف عن ميوله، وأهوائه الجنسية اللعينة، وكأن هذا الرجل خُلق من أجل رغباته، وشهواته، كنت أجلس أمامه وأستمع إلى صوت شيطان يحكى عن لحظات انتصاراته على الإنسان الغبى، الذى يركض خلف ملذات الحياة فقط، وأى نوع من الملذات، فقط، قهر الأنثى، الأنثى التى كرمها الله ـ عز وجل ـ فى كل الكُتب السماوية، الأنثى التى وصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها خيرًا قبل رحيله، الأنثى التى أنجبته، وربته، وجعلت منه رجلًا بين الناس.

كنت أستمع إلى رجل استحوذ عليه الشيطان، فمحا بداخله كل أنواع الأدب، والقيم، والشرف، والكرامة، رجل يشترى الضعيف بالرخيص، وهو لا يعلم أنه بذلك يشترى النار بالشهوة.

انتبهت إليه وهو يقول:

ــ مهدى.. المحامى الذى يعمل عندى، هو الذى يسهل لى جميع الأمور التى أحتاج إليها، فهو محام ماكر، وليس ماهرًا كما يعلم البعض عنه. يعلم كل تفاصيل القانون، وكل ثغراته، يستطيع أن يخرجك من جريمة قتل فى أقل من نصف ساعة تقريبًا، ربما يقنع القاضى أن المجنى عليه هو من طلب من الجانى أن ينهى حياته،

ويستطيع أن يأتى بدليل قاطع على ذلك، ويقدمه للقاضى، ويجلب الجيوش من الشهود.

«يا دكتورة الفلوس بتتحكم فى مصائر دول، وبتخلى دول ومنظمات دولية وتحالفات عظمى تنهار فى أقل من ساعة، مش هتسهل رغبتى»!!

فى الحقيقة، لديه كل الحق فى وجهة نظره التى يعلل بها تصرفاته، لكن وجهة النظر هذه تخص الشيطان، لا تخص بنى البشر، وأنا لستُ ممن يستحوذ عليهم الشيطان بسهولة ويسر، طلبت منه أن يخبرنى أكثر عن هذا المحامى الذي يدعي مهدي، أخبرنى أنه المسئول الأول عن إدارة مكتب المحامى الشهير «رءوف مشهور» وهو الذى يفكك طلاسم أعتى القضايا التى تهز الرأى العام..

علمت من «عارف» أن مهدى هو العقل المدبر لكل هذه الأمور، وعلمت أيضًا أنه يمتلك مكتبًا خاصًّا به، بخلاف عمله مع «رءوف مشهور» الذى يعمل معه بهدف الحماية، نعم، من الذكاء، بل من الدهاء أن تفكر بهذا الأسلوب.

جمعت المعلومات التى أرغب فى جمعها عن مهدى، ويتبقى سؤال مهم للغاية، يجب أن أطرحه على «عارف» قبل أن أنهى الجلسة وأغادر المكان.

ــ هو انت فعلًا عملت اللى أنت عملته مع «سميرة» ده أكتر من

مرة قبل كدة؟!

ــ أيوه، عادى جدًّا، يا دكتورة حاولى تفهمينى علشان تعرفى تساعدينى، فى ناس متعتها أنها تتفرج على ماتش كورة، وفى ناس متعتها أنها تتفرج على فيلم سينما، وفى ناس متعتها إنها تجمع فلوس وشهرة، وأنا متعتى ولذتى فى جسد الست.

هنا، توقَّفت مستعدة للمغادرة، دون سابق إنذار، مما دفع «عارف» للتعجب وهو يسأل.

ــ إنتِ رايحة فين؟!

ــ وقتك معايا خلص النهاردة، المرة الجاية هتحكيلى بالتفاصيل قصص البنات اللى اغتصبتهن قبل سميرة.

ــ بس أنا لسه عندى كلام عايزك تعرفيه.

ــ خليه للمرة الجاية، لازم أمشى علشان الضابط اللى بره ميشكش فى حاجة، آه، خلِّى المحامى بتاعك يتواصل معايا.

هز رأسه على قناعة منه أننى الآن أصبحت أعمل لديه، وأقف فى صفه ضد هؤلاء الأبرياء، على كلٍّ هذا ما أريده الآن.

غادرت الغرفة، وكان فى انتظارى الضابط المسئول، تحدثنا قليلًا وأخبرته أن الأمور تسير على ما يرام، واتفقنا أن نلتقى فى المساء بشكل ودى، بعيدًا عن صفته الوظيفية أو صفتى الوظيفية، ربما يجمعنا تعاون بعيدًا عن العمل فى وقت لاحق.

الفصل العاشر:

لا تثق فى أحد لا يثق فى نفسه، فالثقة التى سوف تمنحها له فى الحقيقة مجرد وهم، وطموحات فى مهب الريح.

إن الثقة يجب ألا تعطى إلا لمن يستحق، وفى الحروب التى تقاوم من أجل الرغبة، لا تثق إلا فى من لا يخشون فى الحق لومة لائم.

وكن على يقين يا صديقى، أنك سترحل يومًا ما، ولن يبقى منك إلا سيرتك، وأنت فقط من يستطيع أن يحدد ما سوف يقال عنك بعد الرحيل، وتذكر، النار بلا ثمن باهظ، فإن أردت أن تكون من ساكنيها، فقط كل ما عليك هو أن تترك نفسك إلى شيطانك،

أما الجنة، فهى باهظة الثمن، ربما تجد مشقة فى بداية الأمر، وربما تشعر بأنك لا تستطيع، ولا تقوى على دفع هذا الثمن، لكن مع الوقت، ستتلذذ بالطاعة، نعم ستجد روحك تستمتع بطاعة ربك، وتحزن حزنًا لا يوصف عند وقوعك فى المعصية.

جعلك الله يا صديقى من أهل الجنة، ومن أهل الحق.

... ...

بالأمس بعدما أنهيت لقائى مع «عارف» وغادرت المستشفى، هاتفت صديقى الصحفى «جاسر» أخبرته بكل مستحدثات الأمور، وعلى الفور بدأ التحرك والعمل بجد، وجهد مضاعف، حتى يحصل على جميع المعلومات اللازمة عن المحامى «مهدي»..

وفى مساء اليوم ذاته، أطلعنى على الكثير والكثير من التفاصيل التى أجهلها عن هذا الرجل، الذى أشبه برأس الشيطان القذر، فهو يعمل فى جميع المجالات غير الشريفة، حقًّا كما أخبرنى «عارف»، إنه يعلم كل تفاصيل وثغرات القانون،

يتخذ من عمله فى مكتب «رءوف مشهور» ستارًا وحماية فى الوقت ذاته، يستغله «رءوف مشهور» بشكل جيد للغاية، حيث إنه يعمل لديه فى القضايا المهمة، وقضايا الشخصيات العامة، ويقوم «رءوف مشهور» نفسه بتحويل القضايا الصغيرة له، وأعنى بالصغيرة هنا، صغر حجم وقيمة الموكل ومدى تأثيره فى المجتمع، وتكون معظم هذه القضايا متمثلة فى إطار قضايا الدعارة والآداب، والمخدرات.

هذا بالإضافة إلى تخصصه فى مجال خدمة رجال الأعمال الخليجيين والأجانب، ويبدو لى من حكى صديقى «جاسر» عنه ومن علاقته بـ«عارف» أنه متمكن وضليع فى خدمة هؤلاء الرجال.

باختصار شديد، هذا الرجل المدعو «مهدي» هو تاجر شاطر

للغاية، فى بيع بضائع الشيطان، والدفاع عن حلفائه فى الأرض، والإيقاع به ليس بالأمر السهل نهائيًا، ويحتاج إلى الكثير من الدقة، والتفكير، والحكمة، بالإضافة إلى معاونة رجل يفهم جيدًا فى ألاعيب هؤلاء القانونيين، ويجب أن يكون من أهل الثقة، أو على الأقل، يجب أن يكون مؤمنًا بتلك الرسالة التى أقدمها أنا وصديقى الصحفى «جاسر».

الشخص الجدير بالثقة والذى يستطيع أن يكون على قدر هذه المسئولية، كان هو نفسه الضابط المسئول عن قضية «عارف»، نعم، يجب أن أستغل كل شيء لصالح القضية الكبرى.

التقينا فى مساء اليوم نفسه، بعد أن تلقيت مكالمة صديقى «جاسر» وذلك لأنى أمتلك وجهة نظر «من يرغب فى شن حرب يجب أن يكون لديه فريق من المقاتلين الذين يتوحدون جميعًا على نفس الهدف، ويلتفون جميعًا حول قضية تحمل بالنسبة لهم نفس الدوافع، والأفكار، ودائمًا ما يؤمنون بأن العدو الذي يواجهونه يستحق أن يسحق نظرًا لظلمه، وفساده»..

ولأن دائرة الأعداء تزيد يومًا بعد يوم، يجب أن نتحالف نحن أيضًا لصد هذه الهجمة الشرسة، على سمعة، وشرف، وكرامة الإنسان،

نعم.. نحن نقاتل من أجل الإنسانية، ونتحالف من أجل أن نقف

حائط صد فى وجه حلفاء الشيطان فى الأرض.

جنود الخير أرواحهم تتلاقى بدون سابق إنذار.. لذا التقينا وتجمعنا.. والآن أعرض أيها الضابط أن تقاتل فى صف الحق، فما هو قولك.

كان العرض صريحًا للغاية، بعد أن أبلغته بكل التفاصيل التى حصلت عليها، وبعد أن قمت بتوضيح الصورة كاملة له، خصوصًا بعد هذه المعلومات التى حصل عليها صديقنا «جاسر» الذى سوف ينضم إلينا بعد وقت قصير.. هنا ابتسم الضابط قائلًا:

ــ إنتِ عارفة حضرتك بتطلبى منى إيه يا دكتورة؟!

ــ أكيد عارفة.

ــ ومع ذلك بتطلبيه!! شجاعة أحكي عليها.

ــ الإنسان اللى اتكلم معايا فى المستشفى وإحنا بنشرب القهوة، يخلينى أتكلم معاه بكل صراحة وشجاعة.

ــ مش خايفة أبلغ المسئولين عن اللى انتِ بتعمليه؟!

ــ فى الحقيقة كنت، بس بعد ما اتكلمنا النهاردة الصبح، وسمعت منك أد إيه، انت بتحب بنتك وبتخاف عليها، وأد إيه أنت رافض اللى حصل للبنت المسكينة اللى اسمها سميرة، هو اللى طمنى، وخلّانى أتكلم معاك بكل صراحة، وأطلب منك إنك تساعدنا علشان نجيب حق الطفلة دى.

ــ يعنى انتِ قضيتك يا دكتورة البنت دى وبس؟!

ــ قبل اللى عرفته النهاردة آه، بس بعد اللى عرفته عن »مهدي« وعن الشبكة والعصابة دى كلها، الهدف اختلف يا فندم.

ــ ويا ترى الهدف دلوقت بقى إيه؟!

ــ سمعة، كرامة، أخلاق، إنسانية، بلد بحالها يا حضرة الضابط، ولا حضرتك موافق إن الفقير فى البلد دى يكون عبارة عن سلعة فى إيد اللى يدفع، مش معنى إنى بطلب منك المساعدة، إنى عاجزة، لا يا فندم أنا آسفة، الناس دى لها حق علىَّ، وأنا مش خايفة طالما أنا فى صف الحق، أكيد ربنا هينصرنى.

ــ وأنا معاكى يا دكتورة، ياالها من لحظة ذات قيمة، حينما تشعر أنك على صواب، وأن كل من حولك يؤمن بما أنت مقدم عليه.

لم يمر الكثير من الوقت إلا وقد حضر صديقنا «جاسر» الذى كان يعلم بأن هناك عضوًا جديدًا سوف ينضم إلى فريق العمل، لكنه لم يكن يعلم صفته الوظيفية.

وبعد أن التقيا، وتعرف كل منهما على الآخر، بدأ جاسر فى سرد المعلومات التى تحصَّل عليها بأسلوبه الخاص الذى اعتاده كصحفى، وبدأ الضابط فى طرح الأسئلة بحكم خبرته، ووظيفته.

أبدى كلٍّ منهما تعاونًا واضحًا، وبالفعل أصبحنا نعمل جميعًا كفريق واحد، يهدف التوصل للحقيقة، الحقيقة ولا شيء غيرها، كل

منا رغم اختلاف أفكاره، وأهوائه، وسماته الشخصية، إلا أننا جميعًا متوحدون، من أجل قضية تمس سمعة، وكرامة، وآدمية الإنسان،

بدأ صديقنا الضابط فى رسم ما يشبه خطة العمل، وكيفية الوصول إلى المحامى «مهدى» واستخراج المعلومات منه، التى تؤكد صدق أو كذب «عارف» ولكن، يجب أن يكون هذا بحرص وحذر شديدين، بحيث لا يكشف ما نرغب فى تحقيقه من هذا اللقاء.

كان الحل الأمثل، هو أن يأتى هذا المحامى لمقابلتى كما طلبت من «عارف» ولكن كيف سيتم الأمر سريعًا، هنا طرح صديقنا الصحفى «جاسر» أن يتصل به ويخبره أن يلتقى بالطبيبة المسئولة عن موكله «عارف» ويكون ذلك من خلال انتحال شخصية ممرض فى المستشفى المحتجز بها «عارف»، لكن تبقى مشكلة وحيدة فى إتمام هذه الحيلة، تؤجلها بعض الشيء، ألا وهى كيفية الحصول على الرقم الشخصى للمحامى «مهدى».

هنا تدخَّل صديقنا الضابط، وأجرى بعض الاتصالات الهاتفية، ومن خلالها حصل على رقم المحامى «مهدى» فى أقل من نصف ساعة.

وبعد لحظات أجرى صديقنا الصحفى «جاسر» الاتصال بهذا المحامى «مهدى» وكان الحوار كالتالى:

ــ آلو.. أستاذ مهدى المحامى؟!

ـ أيوه مين معايا.

ـ حضرتك أنا بكلمك من المستشفى.

ـ مستشفى إيه حضرتك؟!

ـ المستشفى اللى محجوز فيه عارف بيه.

ـ آه.. خير فى إيه.

ـ عارف بيه بيقول اتصل بالدكتورة اللى ماسكة الحالة بتاعته ضرورى، وبيقولك أى حاجة هى عايزاها اعملها لها، وبيقولك هى عندها استعداد للتعاون.

ـ تمام، طيب قوللى معاك رقمها.

ـ أيوه طبعًا، بس متنساش حلاوتى.

ـ أكيد طبعًا.

ـ اكتب عندك.

ثم أعطاه رقم هاتفى، ولم تمر لحظات من إنهاء المكالمة، إلا وسمعنا رنين هاتفى، لم يتوانَ «مهدى» فى تنفيذ تعليمات «عارف» التى وصلته من عامل المستشفى حسب ما قيل له.

أجبت على مكالمته، وطلب أن يلتقى بى فى أسرع وقت ممكن، أخبرته أننى سوف أخصص له وقتًا فى منتصف يوم غد، نلتقى ونتحدث فى جميع التفاصيل، وكيفية الوصول للحل الأمثل الذى يخدم موكله.

ثم أنهيت المكالمة، وبدأ بداخلنا جميعًا الحماس الشديد، كوننا نقترب من الوصول للحقيقة التى نجهلها عن هذه العصابة، التى تنشر فى الأرض فسادًا، وتسعى لتدمير هذا الوطن، وتكدير السلم العام، وإفساد مكوناته الطبيعية، فالأمر لا يتوقف عند جريمة تحت مسمى الاغتصاب، بل فى الحقيقة، الأمر يحمل الكثير من المعانى، ويندرج تحت الكثير من المسميات الجنائية فى علم الجريمة.

وقبل أن ننهى جلستنا، طلب منا صديقنا الضابط، أن يكون لهذا العمل الذى نقدم عليه، نصابًا قانونيًا غير معُلن، حتى لا نتعرض للمساءلة القانونية فيما بعد.

فى حقيقة الأمر، تسلل الخوف والقلق بداخل نفسى أنا وصديقى الصحفى، حينما سمعنا من صديقنا الضابط هذه الكلمات، لكنه حينما قام بالشرح والتوضيح، تفهمنا الموقف وما يهدف إليه، وزاد من الأمر طمأنينة حينما أخبرنا بأنه سيتولى هو أمر المسئولية القانونية، بكل ما فيها، دون الزج بنا فى هذا الأمر،

انتهى الاجتماع الأول لنا، وتوجه كل منا إلى منزله، وهو يعلم دوره وواجبه تجاه هذه القضية، وتجاه هذا المجتمع، وتجاه هذا الوطن وسمعته، وكيفية الحفاظ عليه، والقتال من أجل الحق.

فى منزلى، دار بينى وبين عقلى حوار عما حدث، فى الحقيقة لا أعلم

هل ما حدث منذ قليل أمر منطقى، أو غير منطقى، هل من المعقول أن أتحول من طبيبة أمراض نفسية وعصبية، إلى محقق، وقاضٍ، فى جريمة جنائية؟!.

طرحت الكثير والكثير من التساؤلات، التى كان يجب أن تطرح فى هذا التوقيت تحديدًا، وخصوصًا حينما أخبرنى صديقى الضابط بما قد يلحق بنا من ملاحقات قضائية فى حالة الاستمرار فيما نحن مقدمون عليه، دون إذن قضائى.

فى الحقيقة، الأمور تزداد خطورة كلما فكرت فيها بعين العقل، ودومًا ما يكون صوت عقلى بمثابة الأب لى، الذى يخشى علىَّ كثيرًا من أى مخاطر قد تلحق بى، على عكس قلبى تمامًا الذى لا يخشى فى الحق والعدل شيئًا، ولا يهاب أحدًا، ويدخل فى معارك يراها البعض أنها خاسرة من قبل بدايتها، نظرًا لعدم التكافؤ التى تكون بينى وبين طرف الصراع.

لكن هذه المرة الخصم على ما يبدو عنيد، وله الكثير من الأطراف المتحالفين معه، لقد جنَّد الكثيرين فى خدمته وحمايته، بنى الكثير من القلاع حول حصنه الحصين، وذلك بفضل المال الذى لا حصر له، والذى يمتلكه العدو الأول «عارف».

فى صباح اليوم التالى، تلقيت اتصالًا من المحامى «مهدى» أخبرته أننى سوف أنتهى من العيادة فى تمام الساعة الثانية ظهرًا ، وبعدها

يمكننا أن نلتقى فى أحد الأماكن العامة.

توجهت إلى العيادة والتقيت بـ«سميرة» التى بدأت تستجيب إلى العلاج بشكل ملاحظ.. ثم طلبت من «فايزة» أن نجلس قليلًا حتى أستمع منها إلى بعض التفاصيل التى حدثت بينها وبين هذا المحامى.

كان من الطبيعى أن أجلس معها. قبل أن ألتقى بـ«مهدى» رأس الشيطان والعقل المدبر لكل هذه الجرائم التى نحن بصددها.

بداخل غرفة مكتبى فى العيادة، جلست «فايزة» تروى لى بعض التفاصيل التى حدثت بينها وبين «مهدى»..

ــ قوليلى يا فايزة.. إنتِ قابلتى مهدى؟ !.

كان السؤال صادمًا بالنسبة لها، كيف وصلت إلى هذا الشخص.

ــ ها، آه يا دكتورة قابلته.

ــ وإيه اللى حصل بينكم. عايزه أعرف الحقيقة بالتفصيل ؟!.

أخذت نفسًا عميقًا وبدأت تروى لى ما حدث.

ــ قابلنى فى القسم، وأنا خارجة للعرض على المباحث، وقف مع أمين شرطة من اللى جولى البيت وقبضوا علىَّ، عرف منه كل التفاصيل بتاعت القضية بتاعتى، وبعد ما خلص العرض، نادى علىَّ أمين الشرطة، وقالى إن الأستاذ محام، وعرف إنك هنا علشان الكمبيالات، وقاللى إنه ممكن يساعدنى، ويخرجنى من القضية دى ومتحبسش، أنا أول ما سمعت الكلمتين دول، الفرحة كانت

مش سيعانى، وبصراحة كنت مستعدة أعمل أى حاجة، المهم ما أتحبسش، بعد كدة الأمين قالى هو هايقعد معايا ويسألنى على شوية حاجات بخصوص القضية، علشان يقدر يساعدنى، بس هاياخد الإذن الأول من رئيس المباحث.

ــ و لما قعدتوا مع بعض، إيه اللى حصل بالضبط يا فايزة؟!.

ــ قالى فى رجل بيعمل خير، وممكن يكلمه علشان يدفعلى الفلوس، أنا كنت هابوس إيده علشان يوافق يكلمه، قالى حاضر هاكلمه، بس قبل ما أكلمه، لازم تعرفى إن الراجل ده مش مصرى، هو عربى وبينزل مصر من وقت للتانى يغير جو ويتبسط، وعلشان يدفعلك الفلوس دى، ويخرجك من المصيبة اللى جوزك وقعك فيها وخلع، لازم تبسطيه برضه يا فايزة.

ــ ووافقتى.

ــ وقتها مكانش قدامى حل تانى يا دكتورة، إحنا ناس غلابة، ومش معانا حق العشا أصلًا، وافقت علشان خاطر أخرج لبنتى قبل ما الدنيا تدوسها.

ــ كمَّلى وبعدين؟!.

ــ اتفق معايا إنه هايجيب الراجل وييجى على النيابة، يدفعلى الفلوس هناك ويخرجنى من النيابة، ولما رحت النيابة، كانت أختى وبنتى سبقونى على هناك، وبعدها بشوية، جه المحامى ومعاه الراجل

الخليجى ده، أول ما شافنى واقفة مع أختى وبنتى اتبسط، وقالى متخافيش، هدفعلك الفلوس وهاخرجكم منها، وهابسطكم آخر انبساط، بس بشرط، قولتله أنا وأختى أننا هنفذ كل شروطه، وبعدين العسكرى نادى علينا علشان ندخل لوكيل النيابة.

فى تلك اللحظات رن هاتفى.. إنه «مهدى» يحدد موعد اللقاء فيما بيننا، الوقت داهمنا وأنا أستمع إلى ما حدث بين فايزة ومهدى.

يجب أن أغادر الآن وسوف نكمل حديثنا لاحقًا.

هكذا أنهيت حديثى مع فايزة ولملمت أغراضى وغادرت عيادتى متوجهة إلى هذا المكان الذى حددته لمقابلة مهدى، والذى حدده سالفًا صديقنا الضابط.

فى الطريق أجريت اتصالًا بصديقى الضابط أخبره أننى فى طريقى لمقابلة مهدى، وأثناء المحادثة طلب منى أن أكون متواجدة قبل وجود مهدى حتى أرغمه على الجلوس على طاولة محددة، كان الضابط قد أعدها سابقًا بالاتفاق مع إدارة المكان، وبالفعل هذا ما حدث.

الفصل الحادى عشر:

لكل بدايات نهايات، ولا يترك الله ظالمًا على وجه الأرض بدون عقاب.

دومًا أقول إن الله يختار من بين عباده، من يقف فى وجه الظالم، ويرد عنه ظلمه، ويعيد للمظلوم حقه.

ربما نكون نحن وسيلة عقاب الله لهؤلاء الظالمين فى الأرض، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهناك سوف يكون الحساب العسير على هؤلاء الظالمين.

نحن فقط ننفذ إرادة الله.

....

حصلت على الكثير من المعلومات المهمة من هذا المحامى اللعين «مهدى» حينما التقيته.

أخبرته أننا يجب أن نثبت أمام القضاء أن «عارف» يعانى من مرض نفسى يجعله يقوم بأفعاله هذه التى ارتكبها مع سميرة وهذه

ليست المرة الأولى له، ويجب أن نثبت أن هذه الواقعة ليست المرة الأولى له، وأن ما حدث مع سميرة، حدث نتيجة حالة غيابه عن الوعى، وحتى نثبت ذلك يجب أن نحصل على حالات أخرى مشابهة، يكون فيها «عارف» مارس الجنس مع فتيات فى نفس عمر «سميرة» دون أن يوقع بهن ضررًا جسديًا حتى نثبت أن حالة هذه الطفلة استثنائية.

هنا أخبرنى هذا الشيطان اللعين «مهدى» أن «عارف» يستهوى القيام بتلك الأفعال، منذ أن التقاه أول مرة، فهو بالفعل يستهوى أن يشاهد النساء يمارسن الرذيلة مع بعضهن، دون أن يمارس هو الجنس معهن، بل يكتفى بالمشاهدة، متعته تكمن فى ذلك، ثم يقوم بإحضار فتاة صغيرة ويعاشرها من مؤخرتها، مما يثبت أنه يعانى من مرض نفسى ما.

من خلال حديثى مع «مهدى» استنتجت أنه يعرف الكثير من الضحايا، وأخبرنى بأن النيابة لن تأخذ بهذا الكلام المرسل، ويجب أن يكون هناك شهود على ذلك.

بالفعل أخبرنى أنه يمتلك الشهود، ولدية الكثير منهم، لقد جلب له الكثير من النساء والأطفال..

أخذ يروى لى واقعته الأولى، حيث كان «عارف» متوجهًا لمقابلته فى المكتب، وشاهد الخادمة التى تمسح سلم العمارة، أغرته تفاصيل

جسدها أثناء قيامها بعملها، طلب منَّى أن أجلبها له لأنه يريد أن يسألها عن شيء ما، وبالفعل أرسلت لأحضرها، وحينما وقفت أمامنا سألها، هل لديكِ فتيات صغيرات، أجابت بنعم لدى واحدة.

سألها كم تبلغ من العمر؟.

أخبرته أنها فى الخامسة عشرة.

هنا قدم لها عرضًا ماليًا ضخمًا مقابل أن يعاشرها بشكل غير رسمى، السيدة فى بداية الأمر رفضت العرض، لكنه أغراها بالمال، حتى رضخت له.

ثم جاءت لى السيدة بعد هذه الواقعة بأسبوعين تخبرنى بأن هذا الرجل غير متزن عقليًا ونفسيًا، وأخبرتنى أنه طلب منها أن تحضر سيدة أخرى فى نفس عمرها تكون معها ليلة تواجده مع الفتاة، وبالفعل أحضرت السيدة معها سيدة أخرى ولبت له كل أوامره، وقبل أن يختلى بالفتاة، طلب منها ومن السيدة التى معها، أن تمارسا الرذيلة مع بعضهما أمامه حتى تقوما بإثارته، وما كان لهما إلا أن تقبلا حتى تحصلا على الأموال التى وعدهما بها، ثم قام بمضاجعة الفتاة من مؤخرتها قبل أن يقوم بفض غشاء بكارتها.

ولكنهن لم يعاودن هذه الفعلة، لأنه حينما طلبهن مرة أخرى وذهب إلى مسكنهن لم يجدهن.

هنا طرحت عليه السؤال:

وكيف سنجدهن وهن قمن بتغيير محل إقامتهن.

أخبرنى أنه توصل إليهن من جديد، والتقى بهن أكثر من مرة فى محل إقامتهن الجديد، كما أخبرنى بأن تلك الفتاة امتهنت هذه المهنة الآن مع أمها التى زجت بها فى هذا الطريق، وأنه يستطيع أن يجعلهن يشهدن بأن ما حدث كان بمثابة زواج المسيار.

ثم انتقل للحديث عن واقعة أخرى، تكرَّرت مع زوجة حارس العقار الذى كان يسكن فيه، بنفس التفاصيل، وأخبرنى أيضًا أنه يستطيع أن يصل إليهن فى أى وقت، ويستطيع أن يجعلهن يشهدون بذلك أيضًا.

امتلكتنى الدهشة مما أسمعه، وطلبت منه أن يعطينى عناوين هؤلاء الشهود حتى أستطيع أن أجلس معهن، وأقوم بتجهيزهن نفسيًّا قبل أن نستدعيهن للشهادة.

فى بداية الأمر كان يشعر برهبة شديدة من طلبى هذا، لكنه وبعد تفكير عميق وسريع، انصاع إلى طلبى، وأعطانى عناوينهن وأرقام هواتفهن، وأخبرته أننى سوف أتوجه إليهن بمصاحبة مساعدى الخاص، الذى هو فى الحقيقة صديقى الصحفى «جاسر».

انتهى اللقاء وفى المساء اجتمعنا، أنا وصديقى الضابط وصديقى الصحفى، وبدأنا نحلل ما حدث، وبدأنا فى وضع خطة عمل، وكيف سنحصل على دليل قاطع يدين «مهدى» قبل أن يدين «عارف»

وكيف سنقنع شهود النفى عن «عارف» والذى يمتلك «مهدى» ما يجبرهن على الأدلة بالشهادة فى صالح «عارف»، ونجعلهن شهود إثبات ضد «عارف» و«مهدى».

كان من الضرورى أن يكون معنا شخص كـصديقنا الضابط، لقد وفَّر لنا الكثير من الحلول القانونية، وقدم لنا الكثير من الأفكار التى تساعدنا على ما نقوم به، فى الحقيقة، كان اختيارًا جيدًا للغاية، وتوفيقًا من الله ـ عز وجل ـ أن يقف بجانبنا شخص كهذا.

بدأنا فى الترتيب لزيارة الضحايا، وفى نفس الوقت كنت أقوم بتهيئة فايزة وسميرة بالشكل الأمثل حتى تستطيعا أن تقفا أمام النيابة وتشهدا بما حدث دون خوف، لكن كان علىَّ أن أعرف تفاصيل أكثر من فايزة حتى أتمكَّن من معرفة جميع الأساليب التى يتبعها «مهدى» فى إقناع الضحايا، وكيف يقنعهن بممارسة الرذيلة أمام «عارف» وما هو المقابل المادى الذى يحصلن عليه جراء هذه الأفعال المشينة.

على الجانب الآخر، فتح «جاسر» خط تواصل مع «مهدى» من خلال الهاتف على أساس أنه المساعد الخاص بى، كى يؤهل بقية الضحايا الذين سوف نستخدمهم كشهود إثبات ضد «عارف» ومن بعده «مهدى»..

وحددنا الموعد الأول لنا فى الزيارة بعد أن قمت بآخر جلسة مع فايزة فى العيادة والتى حصلت فيها على الكثير من التفاصيل،

وكانت على النحو التالى.

ــ قوليلى بقى يا فايزة، إيه اللى حصل لما عارف دفع لك الفلوس فى النيابة.

ــ قاللى روحى استحمى انتِ وأختك وبنتك، وأعطانا عشرة آلاف جنيه، وقالى انضفوا وتعالولى بالليل، وأهم حاجة البنت، فى البداية مفهمتش، بس المحامى الملعون فهمنى.

ــ فهمك إيه يا فايزة؟!.

ــ فهمنى إن الراجل ده عينه من بنتى، مش منى ولا من أختى.

ــ وأنتِ عملتِ إيه لما عرفتِ كدة؟!.

ــ كنت هاعمل إيه يا دكتورة، أنتِ عارفة الراجل ده قاللنا هايدفع لنا كام بخلاف إنه يسدد الدين اللى علينا؟!

ــ كام يا فايزة؟!.

ــ ربع مليون جنيه، رقم نسمع عنه بس فى التمثيليات يا دكتورة، تخيلى بقى لو بقى معاكى، بصراحة، عمرى لا أنا ولا أختى كنا نحلم به، الفقر وحش أوى يا دكتورة.

ــ وعملتِ إيه بالفلوس دى يا فايزة؟!.

ــ فتحنا محل كوافير، أصل أنا وأختى اشتغلنا شوية فى محل كوافير حريمى، واتعلمنا الشغلانة بسرعة، وبصراحة مشروع مبيخسرش، يا دكتورة.

ــ تمام، طيب قوليلى، إيه اللى حصل لما روحتوا لـ«عارف» بالليل؟!

ــ خدنا سميرة ورحنا له زى ما أمرنا، كنا فاكرين الموضوع هيبقى سهل وعادى بقى، المهم لقيته بيطلب منا طلبات غريبة، راجل مريض بجد يا دكتورة، بيشترى لحم الحريم علشان يتمتع بالفرجة عليهم، وماكنش قدامنا حل غير إننا نقبل، كل ما بفتكر اللحظة دى بحس إنى كنت حقيرة ومليش لازمة، أسود لحظة فى تاريخ حياتى كلها، لما سلمته بنتى، أختى هونت علىَّ الموضوع.. كنت بموت وبنتى بتصرخ، وهو زى الكلب اللى ما صدق لقى حتة لحمة طرية فى إيده، حصل اللى حصل، وخدنا الفلوس وخدنا البنت ونزلنا على المستشفى علشان نلحق البنت اللى بتنزف، مكناش عارفين إنها بتنزف من ورا، كنا فاكرين إن النزيف ده علشان لا مؤخذاة يعنى زى ما حضرتك فاهمة.

الآن، اتَّضح لى كل شىء، لا أريد سماع المزيد من التفاصيل، ويجب أن أتوقف عن الضغط على فايزة، حتى لا أفقدها كشاهد إثبات ضد «عارف»، خصوصًا أننى أخبرتها بأنى سوف أقدم هذا الرجل للقضاء حتى يحصل على الجزاء المناسب، ويأخذ عقابه جراء أفعاله المشينة هذه، وأخبرتها أيضًا أن ما حدث معها هى وابنتها لم يكن المرة الأولى له، بل هى المرة الأخيرة، والتى لن تتكرر.

تركت فايزة، وغادرت عيادتى، وتوجهت لمقابلة صديقى جاسر، حتى ننتقل بعد ذلك لمقابلة الضحية صاحبة الواقعة الأولى، التى كانت تمسح السُلم، وأغراها «عارف» بمعاونة الشيطان «مهدى» لكى تفعل فعلتها.

وصلنا إلى أحد الأماكن الشعبية، ثم دخلنا منزلها، كانت الرهبة تملأ ملامحها فى بداية الأمر، ثم بدأت تقص لنا قصتها.

أخبرتنا أنها كانت تعيش فى إحدى المناطق النائية، توفى زوجها وترك لها ثلاث فتيات، أكبر واحدة منهن كانت صاحبة الواقعة، رضخت لأوامر هذا الرجل الثرى مقابل أن تحصل على المال بدلًا من تلك المهنة الأسبوعية التى تقوم بها «ماسحة السلالم».

بعد الواقعة مباشرةً أخذت فتياتها الثلاثة وانتقلت للعيش فى تلك المنطقة التى لا يعرفها أحد فيها، وقامت بفتح مشروع تجارى «سوبر ماركت» تبيع فيه المواد الغذائية، ومن الأرباح تصرف على المنزل والفتيات، القصة متشابهة كثيرًا فى الحقيقة، المال والحاجة إليه هما نقطة ضعف هؤلاء الضحايا، غير أن الضحية الأولى بعد عامين تقريبًا من الواقعة، امتهنت تلك المهنة، نعم أصبحت تتزوج من الأثرياء زواج متعة، والهدف الأساسى هو الحصول على المال، أخذت من جسدها بضاعة تتاجر فيها، وتسوقها لطالبى الرغبة والمتعة الجنسية، وهكذا صارت الأحداث.

الضحية الثانية، اختلفت بعض الشيء، لقد حصلت على المبلغ المالى بعد الواقعة ثم توجَّهت إلى بلدها، كانت من إحدى القرى فى الأرياف، عادت وأخبرت جيرانها، بأن ابنتها قد تزوجت رجل أعمال خليجى، وطلب منهما العودة إلى البلد حينما يعود هو إلى بلاده،

كل الضحايا تفنَّن فى إخفاء الحقيقة عن المحيطين بهن، لكن لم يستطعن أن يهربن من مصائرهن، وضمائرهن، الجميع يعترف بالذنب أمام نفسه، وأمام من يعلم الحقيقة، لا يستطيع أن يهرب من الواقعة أو يخفيها بمجرد أن يواجهه أحد بتفاصيلها، لم يكن الأمر مرهقًا بالنسبة لنا، كنا فقط نعطيهن أول طرف الحديث، حتى يعبرن عن ذلك البركان الكامن بداخل صدورهن، الغضب والحزن كانا يكسوان ملامحهن وهن يروين لنا تفاصيل الواقعة التى عشن بها، ولم يستطعن الهروب من أدق التفاصيل فيها ولا أصغرها، حتى نوع العقاقير المنشطة التى كان يتناولها «عارف» أثناء قيامه بتلك الجريمة، كن يحفظنها عن ظهر قلب.

الشيء المدهش حقًّا، أن جميعهن يشعرن بالذنب تجاه أنفسهن، وتجاه أبنائهن، وعلى استعداد تام أن يدلين بشهادتهن ضد «عارف» إذا طلب منهن ذلك، لكنا لم نفصح عما نهدف إليه.

الآن أصبحت كل الأدلة التى تدين «عارف» و«مهدى» بحوزتنا.. هكذا أخبرنى صديقى الضابط، بعد أن قام بتسليم كل

التسجيلات الصوتية التى حصل عليها خلال لقاءاتى بـ«مهدى» وبأفراد الضحايا الثلاثة.

نعم لقد حصل صديقنا الضابط على إذن من النيابة العامة بالتسجيل دون أن نعلم ذلك، مما دفعنى للضحك بشدة حينما علمت أننى كنت أداة فى يده، وكنت أظن أنا من استخدم خبرته ومعرفته بالقانون كأداة فى خدمة الهدف الذى سعيت إليه.

تم القبض على المحامى «مهدى» ومواجهته بالتسجيلات والاعترافات التى حصل الضابط عليها من خلال لقاءاتنا.

تم استدعاء الضحايا الثلاثة لسؤالهن فى النيابة عن الوقائع الثلاثة.

وتم استدعائى أنا وصديقى جاسر كشهود إثبات أيضًا، والاستماع إلى أقوالنا فى تلك القضية.

أصبح كل شيء واضحًا للرأى العام، وذلك من خلال نشر التفاصيل فى الجريدة التى يعمل بها صديقى الصحفى جاسر.

أما أنا فاكتفيت بمتابعة حالة سميرة، بعد أن شعرت بأننى أديت واجبى ورسالتى الإنسانية على أكمل وجه.

كنا ننتظر موعد المحاكمة حسب قول صديقنا الضابط المسئول عن تلك القضية، لكن حدث ما لم يكن متوقعًا، وما لم نخطط له يومًا، لقد تم ترحيل «عارف» حتى يحاكم فى دولته، وذلك من خلال مساعى السفارة الخاصة بدولته هنا فى القاهرة.

أما «مهدى» فلا أعلم ولم أهتم أن أعلم عنه شيئًا، كل ما علمته عنه أنه تم شطبه من النقابة.

وأيضًا أمين الشرطة الذى كان يعاونه، تم فصله عن العمل وإحالته للتحقيق.

تركت كل هذه الأحـداث، واصطحبت سميرة إلى إحدى المحافظات الساحلية حتى أساعدها فى بدء حياة جديدة بعد أن تجاوزت مراحل الخطر، وبدأت حالتها فى الاستقرار.

وحينما رجعنا إلى القاهرة مجددًا، وأثناء تواجدى فى العيادة، طرق باب مكتبى رجل يدعى سعد، ويدعى أنه والد سميرة.

وهنا كانت الصدمة حينما أخبرنى بتفاصيل اختفائه،

فى الحقيقة فايزة هى من اختفت وليس زوجها، فى الحقيقة فايزة هى من بحثت عن الثراء بكل ما تمتلك من حيل وليس سعد، فى الحقيقة فايزة هى الشيطان الحقيقى فى هذه الرواية وليس شخصًا آخر.

«نمت بفضل الله»

السيرة الذاتية

د. هند المنياوي

- شاعرة، روائية، وسيناريست.
- رئيس مجلس إدارة مركز المستشارة للتدريب وتقديم الاستشارات والبرامج النفسية والاجتماعية والزوجية .
- عضو اتحاد كُتاب مصر.
- عضو رابطة الأدب الحديث.

المؤهلات العلمية:

- دكتوراه في فلسفه الأدب العربي المعاصر.
- ماجستير في فنون كتابة الرواية.
- ماجستير تواصل اجتماعي.
- ماجستير في التحكيم الإعلامي الدولي.
- دبلومة في استراتيجيات التفكير الابتكاري وبرامج تنمية

الإبداع.

- دبلومة في الدراسات الإعلامية الدبلوماسية.
- دبلومة في تنمية المهارات وتطوير الذات.
- دبلومة في ثقافة التخاطب والبرامج اللغوية والسمعية والذهنية.
- دبلومة في التحكيم الدولي للفنون الأدبية.

التكريم الأدبي:

- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في التنمية الذاتية وتطوير المهارات من الجامعة الدولية الأمريكية.
- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في برامج الكورت للتفكير من ديبونو الشرق الأوسط.
- حاصلة على الدكتوراه الفخرية في الإرشاد الأسري والبرمجة اللغوية العصبية لكافة الأعمار وللجنسين من الجامعة الدولية الأمريكية.
- درع التفوق والإنجاز العلمي من الجامعة الدولية الأمريكية.

الخبرات العلمية:

- خبير مُعتمَد في برامج الكورت من ديبونو الشرق الأوسط.

- خبير مُعتمَد من المركز العالمي للبرمجة اللغوية العصبية.
- خبير استراتيجي للتنمية البشرية من أكاديمية جون هيفر البريطانية.
- خبير مُعتمَد للتدريب والاستشارات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من الجامعة الدولية الأمريكية. مُمارس مُعتمَد لليوجا والكريستال لعلاج الطاقات البشرية والعقلية من الجامعة الدولية الأمريكية.
- مُمارس ومعالِج مُعتمَد للعلاج بالتنويم الإيحائي لكافة الأعمار من المركز الكندي.

الأعمال الأدبية المؤلَّفة المطبوعة:

1 - مشاعر مرهفة، ديوان، إصدار أول 2008 م.
2 - القلب العاري، رواية، إصدار أول 2009 م.
3 - الحب المحرم، رواية، إصدار أول 2010م.
4 - حكاية ثورة، رواية، إصدار أول 2011م.
5 - هس هس ولا كلمة، إصدار أول 2012م.
مجموعة قصصية للأطفال تُحول اللغة المقروءة إلى مدلول إشاري للصُّم والبُكم.
6 - المرأة الحلم، ديوان، إصدار أول 2013م.

7 – أحلام بلا فارس، رواية، إصدار أول 2014 م.
8 – صُناع التاريخ، رواية، إصدار أول 2014م.
9 – بقعة دم ،رواية،إصدار أول ٢٠١٧م.
10 – مذكرات زوجة عاشقة ،رواية ،إصدار أول ٢٠١٧م.

الأعمال العلمية المؤلَّفة المطبوعة:

1 – البناء التصويري والمفهوم والرمز والحداثة في الأدب العربي المعاصر، رسالة دكتوراه.
2 – ترويض الأفكار، إنعاش الطاقة العقلية.
3 – الجسد ، أسرار السيطرة على الذات.
4 – قياس الذكاء، برنامج جودة فكرية.
5 – نحو التحرر ، برامج تأهيل.

أعمال أدبية تحت الطبع:

1 – السعادة .. تنمية مهارات...
2 – زواج وطلاق .. استشارات زوجية.
3 – ليالٍ حمراء.. رواية.

الفهرس

- الفصل الأول: 3
- الفصل الثانى: 17
- الفصل الثالث: 33
- الفصل الرابع: 47
- الفصل الخامس: 59
- الفصل السادس: 71
- الفصل السابع: 85
- الفصل الثامن: 97
- الفصل التاسع: 109
- الفصل العاشر: 121
- الفصل الحادى عشر: 133